٧ ـ الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

٧ ـ الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

«أولاً: نبذة موجزة عن سيرته»

١ ـ نسبه، ومولده، ونشأته: هو الشيخ العلامة الزاهد الورع الفقيه الأصولي المفسر عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي من نواصر بني تميم.

ولد في مدينة عنيزة في الثاني عشر من شهر الله المحرم سنة ألف وثلاثمائة وسبع للهجرة النبوية الشريفة.

وتوفيت أمه سنة ١٣١٠هـ، وتوفي والده سنة ١٣١٣هـ فعاش يتيم الأبوين.

وكان والده من أهل العلم والصلاح، وكان إماماً في مسجد المسوكف في عنيزة.

ولما توفي والده عطفت عليه زوجة والده، وأحبته أكثر من حبها لأولادها، فكان عندها موضع العناية؛ فلما شبَّ عن الطوق صار في بيت أخيه الأكبر حمد؛ فنشأ نشأة صالحة كريمة، واعتنى به أخوه حمد عناية فائقة، وكان يجله، وينياديه باسم الشيخ، وكان الشيخ عبدالرحمن يخاطب أخاه باسم الوالد، ويقول له باللهجة العامية: «يبه» ـ كما أفاد بذلك ابنُ أخيه عبدُالرحمن بنُ حمد ـ.

وقد أقر الله عين حمد بأخيه الشيخ عبدالرحمن؛ حيث رأى أخاه والأنظار ترنو إليه بعين التجلة، والإكبار؛ لعلمه، وفضله، ومكانته.

وقد امتد العمر بـ: حمد؛ فتجاوز المائة، وعاش بعد أخيه الشيخ عبدالرحمن

اثنتي عشرة سنة؛ حيث توفي سنة ١٣٨٨هـ، وهو يكبر الشيخ بما يزيد على عشرين سنة تقريباً ـ كما أفاد بذلك عبدالرحمن بن حمد ـ.

وكان الشيخ عبدالرحمن معروفاً منذ نشأته بالصلاح، والمحافظة على الصلاة مع الجماعة، كما اشتهر بفطنته، وذكائه، ورغبته الشديدة في العلم.

٢ـ شيوخه: تلقى الشيخ عبدالرحمن رحمه الله العلم على عدد من العلماء الكبار الأفذاذ الذين أخذوا العلم من مصادر ومشارب مختلفة، ومن أقطار متعدد؛ فمن هؤلاء:

أـ الشيخ على بن محمد السناني ١٢٦٣ـ١٣٣٩هـ وكان لهذا الشيخ يد طولى في التفسير، والحديث، وكان رحمه الله ذا خط جميل جداً.

بـ الشيخ علي بن ناصر بن وادي ١٢٧٣ـ١٣٦١هـ علم بحر في علم الحديث الذي أخذه عن علماء الحديث في الهند ومنهم الشيخ نذير حسين، والشيخ صديق حسن، وكان ذا خلق وعبادة، وقد أجاز الشيخ عبد الرحمن في مروياته.

جـ الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر ١٢٤١ـ ١٣٣٨هـ كان ـ يرحمه الله ـ يحفظ الصحيحين، وقال عن الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «إنه يستحضر شرح النووي عن مسلم».

وقد تلقى الشيخ إبراهيم العلم عن علماء الشام، وفي صالحية دمشق، ولازم علماء الحنابلة في نابلس.

دـ الشيخ المؤرخ إبراهيم بن صالح بن عيسى ١٢٧٠ـ١٣٤٣هـ درس رحمه الله على علماء العراق، والهند، وأجاز الشيخ عبدالرحمن في مروياته من كتب الحديث.

هـ ـ الشيخ العابد المقرئ المجود عبدالله بن عائض ١٢٤٩ـ ١٣٢٢ هـ.

وقد كان رحمه الله حسن الخط، جميل الصوت، إمام مسجد الجوز في عنيزة.

وقد تلقى العلم على مشايخ كبار في مكة، ومصر، وكذلك تلقى على كبار علماء نجد كالشيخ عبدالله أبابطين رحمه الله.

وكان له مواقف عجيبة، ومنها أن وفاته كانت في مقبرة عنيزة، وذلك لما انتهى من دفن أحد الموتى.

وـ الشيخ صالح بن عثمان القاضي ١٢٨٢ـ١٣٥١هـ وقد لازمه الشيخ عبدالرحمن، وجلس بعده للتدريس.

وقد رحل الشيخ صالح إلى مكة، ومصر لطلب العلم.

ز ـ الشيخ محمد بن عبدالكريم الشبل ١٢٥٧ـ١٣٤٣هـ وتلقى العلم عن علماء الحرمين الشريفين، ورحل إلى مصر، والشام، والعراق، والكويت، فحصل على علم غزير.

ح ـ الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع ١٣٠٠ـ١٣٨٥هـ وقد كان مدير عام المعارف سنة ١٣٦٥هـ، وصاحب المؤلفات المشهورة، وقد أخذ عن علماء بغداد والبصرة، ومصر، ودمشق.

ط ـ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقد تأثر به الشيخ في طريقته في التدريس، وأسلوبه في التعليم، وهو ليس صاحب أضواء البيان ـ رحم الله الجميع ـ.

ي ـ الشيخ صعب بن عبدالله التويجري ١٢٥٣ ـ ١٣٣٩هـ وقد كان من العباد المعروفين بكثرة قراءة القرآن، وقيل: إنه كان يقرأ القرآن وهو نائم[١].

٣ـ وصفه الخَلْقي: كان ذا قامة متوسطة، شعره كثيف، ووجهه مستدير ممتلئ طلق، ولحيته كثَّة، ولونه أبيض مشرب بحمرة.

وكان شعره في شبيبته في غاية السواد، وبعدما كَبِر قليلاً صارت لحيته في غاية البياض؛ حيث ابيضَّت لحيته وهو في الثامنة والعشرين من عمره تقريباً ـ كما أفاد بذلك ابنه محمد ـ.

وكان على وجهه حسن، ونور، وصفاوة.

٤ـ أخلاقه: كان رحمه الله آية باهرة في الأخلاق؛ فكان رحيماً بالناس، متوداً لهم، محباً لنفعهم، صبوراً عليهم.

وكان طلق ا لمحيا، ذا دعابة ومرح، لا يُعْرَفُ الغضب في وجهه، وكان ينزل الناس منازلهم، ويحرص على القرب منهم، وإجابة دعواتهم، وزيارة مرضاهم، وتشييع جنائزهم.

وكان على جانب كبير من عفة اليد، ونزاهة العرض، وعزة النفس، وكان محباً لإصلاح ذات البين؛ فما من مشكلة تعرض عليه إلا ويسعى في حلها برضا

١ـ هذه الترجمة لشيوخ الشيخ مستفادة من حفيده الأستاذ مساعد السعدي.

من جميع الأطراف؛ لما ألقى الله عليه من محبة الخلق له، وانقيادهم لمشورته.

ولقد كان محل التقدير والثناء عند الخاصة والعامة، ولقد أثنى عليه كثير من علماء عصره.

قال عنه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «... كان رحمه الله كثير الفقه والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وكان يرجح ما قام عليه الدليل، وكان قليل الكلام إلا فيما ترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً إلا في مسائل العلم، وكان متواضعاً، حسن الخلق، ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمه، وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمة واسعة».

وسئل سماحة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله عن رأيه في كتاب تفسير الشيخ عبدالرحمن بن سعدي فقال: «هو تفسير جيد، وله أقوال جيدة، مع أن مراجعتي له قليلة، لكن في حدود اطلاعي عليه تبين لي أنه متحرر الرأي والنظر بضوابط الشرع، وليس عنده جمود أو تعصب.

وقد التقيته في دمشق قبل أكثر من أربعين سنة، وآنست منه علماً جماً، ورأيت فيه تواضع العلماء وهو ـ في هذا ـ كسائر علماء نجد، يذكروننا بأخلاق العلماء المتقدمين وتواضعهم، وليس كغيرهم ممن جعلهم علمهم مغرورين متكبرين...».

وقال عنه سماحة الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمه الله: «... فإن من قرأ مصنفاته

ـابن سعدي ـ وتتبع مؤلفاته، وخالطه وسبر حاله أيام حياته ـ عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة، وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شر، أو يفضي إلى نزاع أو شقاق، فرحمه الله رحمة واسعة...».

وقال عنه سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «... إن الرجل قلَّ أن يوجد مثله في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه، حيث كان يعامل كُلاً من الصغير والكبير بحسب ما يليق بحاله، ويتفقد الفقراء، فيوصل إليهم ما يسد حاجتهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يَلُمُّ به من أذى الناس، وكان يحب العذر ممن حصلت له هفوة، حيث يوجهها توجيهاً يحصل به عذر من هفا...».

وقال عنه فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله: «... لقد عرفت الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المدقق المحقق الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء...».

وقال: «... عرفت فيه العالم السلفي، الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القوية الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القوية الكريمة النقيَّة...».

٥ـ أعماله: قام رحمه الله بأعمال جليلة أعظمها دروسه العلمية، وخطبه المنبرية، وتأسيسه وتشجيعه لكثير من الأعمال والمشاريع الخيرية.

وكان مرجع بلدته عنيزة في جميع الأمور؛ فهو المدرس، والواعظ، وإمام

الجامع، وخطيبه.

وهو المفتي، وكاتب الوثائق، ومحرر الوصايا، وعاقد الأنكحة، ومستشار الناس فيما ينوبهم، كل ذلك كان يؤديه حسبةً لله دون مقابل مادي.

وقد عرض عليه القضاء عام ١٣٦٠هـ فتأبى، وتكدر كثيراً حتى إنه كان يغمى عليه في بعض الأوقات، وكان لا يشتهي الطعام، حتى يسر الله له التخلص منه.

وكان يشرف على المعهد العلمي في عنيزة عندما أُسس عام ١٣٧٣هـ دون مقابل.

٦ـ مرضه ووفاته: أصيب عام ١٣٧١هـ قبل وفاته بخمس سنين بمرض ضغط الدم، وتصلب الشرايين، فكان يعتريه مرة بعد أخرى إلى أن توفاه الله قبل طلوع فجر يوم الخميس ٢٣ سنة ١٣٧٦هـ عن تسع وستين سنة.

٧ـ علمه: حرص الشيخ رحمه الله منذ نشأته على طلب العلم، وأمضى حياته في العلم حفظاً، ودراسة، وتحصيلاً، وتدريساً لا يصرفه عنه صارف.

وكانت له اليد الطولى، والأثر العظيم في النهضة العلمية في بلده عنيزة خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة، ولا زالت آثاره تتجدد إلى يومنا هذا.

وقد تخرج عليه أعداد كبيرة من الطلاب الذي صاروا بعد ذلك ممن يشار إليهم بالبنان، ومن هؤلاء: الشيخ عبدالله بن عقيل ـ حفظه الله ـ والشيخ عبدالعزيز السلمان، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبدالله البسام ـ رحمهم الله ـ.

كما ترك رَحِمَهُ اللَّهُ عدداً كبيراً من المؤلفات النافعة في التفسير، والحديث، والأصول، والعقيدة، والفقه، والآداب ونحو ذلك.

ومن هذه المؤلفات: خلاصة التفسير، والقواعد الحسان، والفتاوى، وبهجة قلوب الأبرار، وغيرها.

وأعظم كتبه، وأشهرها وأكثرها سيرورةً في الناس ـتفسيره المعروف بـ: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) أو ما يسمى بـ: (تفسير السعدي).

ذلك التفسير المبارك الذي لقي قبولاً منقطع النظير، وطبع طبعات كثيرة، بل لا تكاد تخلو مكتبة أو مسجد من ذلك التفسير العظيم.

ولقد كان له منهج منفرد متميز في ذلك التفسير؛ حيث عني عناية تامة بهداية القرآن، وأثره في صلاح القلوب، واستقامة أمر الدين والدنيا.

كل ذلك بأسلوب جزل سهل واضح ميسور.

بل إنه يجمع عدداً من الأقوال في الآية الواحدة، ويصوغها بعبارات موجزة تؤلف بين الأقوال، وتجمع أطراف الموضوع.

كما كان معنياً باستخلاص الدروس والعبر من الآيات.

ولهذا صار محل الثناء، وموضع القبول لدى الخاصة والعامة.

ولقد أثنى عليه عدد من العلماء، قال عنه سماحة الشيخ عبدالله بن عقيل ـحفظه اللهـ: «الحقيقة أن هذا التفسير قد وضع الله له القبول بين المسلمين، فهو يذاع من إذاعة القرآن الكريم بالمملكة يومياً مرتين، ويُقرأ في المساجد على جماعة المصلين، ويُدَرَّس في حلقات المشايخ.

وقد طبع عدة طبعات، لكنها مع الأسف لا تخلو من الأغلاط وبعضها من تصرفات المعلقين.

وهذا التفسير من أنفع التفاسير وأقربها إلى الفهم لسهولة عباراتها؛ فهي سهلة المباني، واضحة المعاني، خالية من التعقيدات والإسرائليات ومشاكل الإعراب، وذكر الخلاف.

وأهم شيء سلامته من تأويل آيات الصفات؛ حيث يفسرها على منهج السلف، إضافة إلى ما فيه من الاستنباطات الدقيقة، وذكر ما يستفاد من كل آية يمر بها في موضعها دون الإحالة إلى موضع آخر.

وحسبك ما أرشد إليه من الأخلاق الإسلامية، والحكم النبوية والآداب الشرعية، كل هذا بعبارات سهلة واضحة، يفهمها عامة الناس ويستفيد منه طلاب العلم.

فهو في الحقيقة من السهل الممتنع.

وطالما تمنيت ودعوت الله ـ تعالى ـ أن يهيأ لهذا التفسير من يترجمه إلى إحدى اللغات الأجنبية لا سيما اللغة الإنجليزية، لعل الله ينفع به هناك فهو أبلغ دعاية إلى الدين الإسلامي وبالله التوفيق».

وقال سماحة الشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله: «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن تفسير شيخنا عبدالرحمن الناصر السعدي رحمه الله المسمى: (تيسير الكريم

الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها: سهولة العبارة ووضوحها؛ حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها: تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ، وتبلبل فكره.

ومنها: تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره، وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ؛ حيث يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها: السير على منهج السلف في آيات الصفات؛ فلا تحريف، ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه؛ فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها: دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها: أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله ـتعالىـ في سورة الأعراف: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾.

ومن أجل هذا أشير على كل مريد لاقتناء كتب التفسير ألاَّ تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله ـ تعالى ـ أن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان».

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٤٢١/٣/٢٢هـ

وقال عنه فضيلة الشيخ العلامة د. بكر بن عبدالله أبو زيد ـ رحمه الله ـ في مقدمة إحدى طبعات تفسير السعدي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته، أما بعد

فإن ما أكتبه هنا ليس تقديماً ولا تقريظاً، لكن دلالة على الخير، وتنويهاً؛ فلا أكتم القراء حديثاً إذا قلت: إنه في عام ١٣٨٠هـ تقريباً سمعت من بعض الصالحين الوصية بتفسير الشيخ عبدالرحمن بن سعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ ـرحمه الله تعالىـ (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، في ثمانية أجزاء؛ لأنه يتميز بأمور أهما: أنه تفسير مأمون جارٍ على طريقة السلف يجمع خلاصة الأثر الصحيح والفهم السليم بسياق سهل مختصر، فهو تذكرة للمنتهي، وتبصرة للمبتدي، ثم تتابع هذا السماع من آخرين من العلماء وطلبة العلم، ثم بعد بضع سنين أهدى إليَّ ابنه ذو الوجه الصبوح الشيخ عبدالله المتوفى سنة ١٤٠٥هـ ـرحمه الله تعالىـ بعض رسائل أبيه الشيخ عبدالرحمن، ومنها: (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) و (القواعد الحسان لتفسير القرآن) و (فوائد مستنبطة من قصة يوسف ـعليه السلامـ)، فقرأت هذه الرسائل الثلاث فوجدت فيها دافعاً قوياً إلى هذا التفسير، فكنت أستفيد منه من وقت إلى آخر حتى إذا جاء عام ١٤١٨هـ كان لي شرف المراجعة الأخيرة لكتاب: (التفسير الميسر) الذي أعده نخبة من العلماء، وطبع بمجمع الملك فهد

لطباعة المصحف الشريف بمدينة النبي ﷺ فوجدت أن هذا التفسير يعتمد كثيراً تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وتفسير ابن سعدي ـرحمه الله تعالىـ فحصل لي من تفسير ابن سعدي نوع ارتواء، وصار لي به فضل اعتناء.

وظهر لي أنه ـ إضافة إلى تلك الميزات ـ كان لفائق عنايته بكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ ينتخب من فوائدهما ما طرز به هذا التفسير.

من هذه المعارف وغيرها ضمن ـ رحمه الله تعالى ـ تفسيره كثيراً من جلائل المعاني، ودقائق الاستنباط من آيات الذكر الحكيم والقرآن المجيد، منها على سبيل المثال: ما ذكره عند تفسيره لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ البقرة:١٣٦.

وما استنبطه من الأحكام من آية الوضوء (٦) من سورة المائدة.

والفوائد الجليلة التي يذكرها عقب قصص الأنبياء وغيرهم...

وانظر إلى تلك الإشارة اللطيفة في تفسير لقوله ـ تعالى ـ في سورة الأحزاب (١٣): ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ الآية.

فأبان ـ رحمه الله تعالى ـ بإشارته أن المناداة بالوطنية، وترك الأخوة الإيمانية والرابطة الإسلامية من أعمال الجاهلية، وليست من الإسلام.

وهذه فائدة عزيزة لم أرَ من حام حولها، وهذه الآية تكمل ثلاث آيات جاءت في أن (الرابطة الوطنية) ليست (رابطة إسلامية).

وإذا جاوزنا هذه المعارف والأهلية، ونظرنا في سيرته العطرة وجدناه على

جانب كبير من التأسي والاقتداء، والخير والصلاح والهدى والفلاح.

ومما لم يقيد في سيرته ما حدثني به الشيخ محمد عبدالرحيم صديق المكي المتوفى سنة ١٤٠٨هـ ـ رحمه الله تعالى ـ صاحب المكتبة الصديقية ضمن خزائن مكتبة الحرم المكي أنه شاهد من عبادة الشيخ في صلاته، ما يدل على الخشوع والتعلق بالله ـ تعالى ـ مما علمه عن مشاهدةٍ كيفيةَ الأداءِ لهذه العبادة العظيمة.

وهذا نظير ما يتناقله الأشياخ عن الشيخ محمد حامد الفقي المتوفى سنة ١٣٧٩هـ ـ رحمه الله تعالى ـ من قوله: إنه لم يعرف عن مشاهدةٍ أداءَ الصلاة على وجهها بخشوع وخضوع لله ـ عز وجل ـ مثلما عرفه من الشيخ أحمد شاكر المتوفى سنة ١٣٧٧هـ ـرحمه الله تعالى ـ.

فنرجو أن يكون لهذا العلامة المفسر نصيب من قول شيخ الإسلام ابن تيمية ـرحمه الله تعالى ـ: «وأما (العلم اللدني) فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين، وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه ـ ما لا يفتح به على غيرهم.

وهذا كما قال علي: إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وفي علم الأثر(من عمل بما عمل ورّثه الله علم ما لم يعلم).

وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦) وَإِذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٦٨)﴾ النساء، فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به، يهديه الله صراطاً مستقيماً، وقال ـتعالى ـ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ المائدة:١٦، وقال ـتعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ محمد:١٧، وقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ الكهف:١٣، وقال ـتعالىـ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة:٢، وقال ـتعالىـ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الجاثية:٢٠، وقال ـتعالىـ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف:٢٠٣...» (الفتاوى١٣/٢٤٥).

ويحضرني عند التنويه بتفسير هذا الشيخ الجوابُ البديعُ من العلامة المفسر الشيخ عبدالرحمن الدوسري المتوفى سنة ١٣٩٩هـ ـ رحمه الله تعالى ـ عندما سئل عن أهم شروط المفسر؟ فقال على البديهة: «أن تملأ قَلبَه الفرحةُ بالقرآن...».

وأحسب أن الشيخ ابن سعدي ممن تحقق فيه هذا الأمر؛ فتفجرت أنهار المعاني بين يديه وذلك من فضل الله عليه، فرحمه الله وأجزل مثوبته.

وكما قيل: «إن معاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة وهي قلوب المتقين» (انظر: الفتاوى ١٣/٢٤٥).

نفع الله الشيخ ابن سعدي هذا السبق العلمي من عالم نجدي؛ فإني لا أعلم في النجديين من له تفسير كامل لكتاب الله ـ تعالى ـ بهذا السبك والجودة؛ فقد قضى الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ الدَّين عن من قبله، وسبق من بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد كتب الله لهذا التفسير من القبول والانتشار ما بلغ مبلغ الليل والنهار، فطبع عدة طبعات...

وكتب

بكر بن عبدالله أبو زيد

٨ شعبان ١٤٢١هـ

٨ـ الكتابات والدراسات حول الشيخ عبدالرحمن السعدي:

لقد ترجم للشيخ السعدي عدد كبير من العلماء والمؤلفين، وقامت دراسات علمية تبحث في جوانب من سيرته وعلمه...

ومن ذلك ما كتبه الشيخ حمد القاضي في كتابه (روضة الناظرين)، والشيخ عبدالله البسام في كتابه: (علماء نجد خلال ثمانية قرون)، والشيخ عبدالله ابن سابح الطيار رحمه الله في كتابه: (الشيخ عبدالرحمن السعدي مفسراً)، والشيخ أ.د. عبدالله بن محمد الطيار في كتابيه: (صفحات من حياة علامة القصيم عبدالرحمن ابن سعدي)، و (أثر علامة القصيم عبدالرحمن السعدي على الحركة العلمية المعاصرة)، والشيخ د. عبدالرزاق البدر في كتابه: (جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في العقيدة).

وهناك الكثير من التراجم المختصرة في سيرة الشيخ عبدالرحمن رحمه الله ولعل من أجمل تلك التراجم ما كتبه فضيلة الدكتور عبدالرحمن العدوي؛ لكونه عاصر الشيخ السعدي، وعايشه عن قرب إبان فترة تدريسه في معهد عنيزة.

ولأن هذه الترجمة ـ على وجازتها ـ ألقت الضوء على جوانب عديدة من سيرة الشيخ، وجمعت كثيراً مما تفرق منها.

ومع ذلك لم تأخذ هذه الترجمة حقها من الانتشار والذيوع؛ فإلى تلك الترجمة المختصرة الماتعة.

يقول الشيخ الدكتور العدوي في ترجمته التي عنون لها بـ: الشيخ عبدالرحمن السعدي:

«شيخ جليل مهيب، أخلص للّه في تعليم المسلمين أمور دينهم، ونشر عقيدة الإسلام وأحكامه بينهم، وهو من أهالي بلدة عنيزة من أعمال القصيم في شمال نجد عاش فيها حياته، وكان فيها مقره الأخير.

كنا في عام ١٣٧٣هـ الموافق ١٩٥٣م اثنين من علماء الأزهر الشريف مبعوثين للتدريس في المملكة العربية السعودية، وكانت إدارة المعارف حينذاك في مكة في مواجهة المسجد الحرام، وكان على رئاستها الشيخ محمد بن مانع رحمه الله وقد رأى أن أسافر مع زميلي الشيخ محمد الجبة للتدريس في المدرسة الثانوية بعنيزة، وسافرنا وبدأنا عملنا في المدرسة التي كان بها فصلان في السنة الأولى فقط، ولم يمض شهر حتى صدر الأمر الملكي بنقلنا إلى المعاهد العلمية التابعة لآل الشيخ.

وكانت هذه هي الطريقة التي تستكمل بها المعاهد العلمية حاجتها من المدرسين، ولم يكن المعهد العلمي موجوداً بعد، فطلب منا أن نعلن عن افتتاحه ونستقبل طلبات الراغبين في الالتحاق به ونحدد مستواهم العلمي ونوزعهم على السنوات الدراسية وقد تم كل ذلك في فترة وجيزة وبدأت الدراسة في المعهد العلمي بعنيزة في شهر ربيع الثاني من عام ١٣٧٣هـ، وفي الوقت بلغنا أن الشيخ عبد الرحمن السعدي قد عين مشرفاً على المعهد من الناحية العلمية، وكان تعيينه براتب شهري قدره ألف ريال، ولكن الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ أرسل إلى رئاسة المعاهد العلمية أنه على استعداد للإشراف على المعهد حسبة لوجه الله ـ تعالى ـ وأنه لا يريد أن يكون له على ذلك أجر مادي وقبلت الرئاسة شاكرة له هذا الصنيع الذي لا يصدر إلا من عالم زاهد يبتغي وجه الله.

وبدأت صلتنا بالشيخ عبد الرحمن السعدي في المعهد أولاً، ثم التقينا به كثيراً في المسجد الجامع؛ فقد كان شيخاً له، وفي منزله المتواضع الذي رفع قدره وأعلى صرحه سلوكُ صاحبه، وسيرتُه في الناس.

كان رحمه الله يأتي إلى المعهد بانتظام يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وكان يخلع نعليه عند دخول الفصل أثناء الدرس مع أن في نجد لا يخلعون نعالهم عند دخول المسجد، ولا عند الصلاة، ولكنه الأدب الراقي، واحترام العلم ومجلسه، ثم يدخل آخر صف، ويجلس فيه وكأنه أحد طلاب هذا الفصل، ويكرر هذا العمل في أكثر من فصل ويستمع إلى أكثر من مدرس، ولم يكن في المعهد من المدرسين المصريين سواي وزميلي، أما بقية المدرسين فكانوا من أبناء الشيخ علَّمهم في المسجد الجامع إلى درجة تسمح لهم بالقيام بتدريس المواد التي تعلموها على يديه.

وكان منهم حمد البسام، وسليمان البسام، وعبد الله البريكان، ومحمد ابن عثيمين.

ومضت فترة بعد وصولنا عنيزة أحسسنا فيها بالغربة والوحشة، وكنا نتأثر بجفاء بعض الناس في التعامل، واللقاء، وعدم رد التحية لا بأحسن منها ولا بمثلها.

وكان يحدث أحياناً ونحن وقوف للصلاة أن يأتي أحد البدو ولعله من غير أهل عنيزة، فيقف بجوار أحدنا، وينظر إليه نظرة استغراب، ثم يخط بعصاه خطاً فاصلاً في الرمال يفصل بينه وبين من يجاوره منا ثم يقول بصوت مسموع: (أعوذ

بالله) وبعدها يكبر للصلاة.

وقال لي صاحبي: لماذا يتعوذ هؤلاء؟ فقلت لعلهم يعتقدون أننا لسنا من بلاد الإسلام، وما علينا إلا أن نزيل هذا الظن الخاطئ؛ فتستقيم الأمور، وتصح المعاملة، قال: ولكن كيف السبيل إلى ذلك ونحن مدرسون في المعهد لطلاب قد يتحدثون مع ذويهم عنا وقد لا يتحدثون؟

قلت: السبيل في رأيي أن نعطي الناس دروساً في التفسير والحديث والفقه بين المغرب والعشاء في المسجد الذي نصلي فيه، وبها نؤدي واجبنا، ونزيل التباساً.

وعرضنا الفكرة على الشيخ عبد الرحمن السعدي، فاستحسن ذلك أيما استحسان، وشجعنا، وأوصانا بألا تضيق صدورنا؛ فإن من خلق العلماء الصبر والاحتمال والحرص على تبليغ رسالة الله في كل الظروف.

وبدأنا التدريس في مسجد (السويطي) بين المغرب والعشاء، وزاد عدد الحاضرين يوماً بعد يوم حتى كاد المسجد على سعته أن يمتلئ بالمصلين.

وبعد أسبوعين تقريباً حدث أمر شرح صدورنا، وأحسسنا معه بالود والمحبة؛ فقد تقدم إلينا شيخ كبير، وأشار بيده إلى سجادتين مفروشتين خلف الإمام، وقال: هذا مكان صلاتكما؛ فأنتم أهل العلم والفضل، وعلينا أن نكرم العلماء، وكان لهذه اللفتة أثرها الطيب الحميد؛ فقد أحسسنا صفاء قلوب القوم، وزالت العوارض التي كانت تؤثر تأثيراً متعباً؛ فما كانت إلا تصرفاً شخصياً من بعض الجهال لا يعبر عن السلوك العام، ثم زادت الصلة بيننا وبين الناس، وتوثقت، فدعينا إلى شرب القهوة بالعبارة النجدية الحلوة «نبغى نقاهويك يا أستاذ» وتكرر

ذلك، والموعد بعد صلاة العشاء الآخرة وكان معنا في المعهد سكرتير من أهل عنيزة اسمه (عبد الله) فكان يتولى تدوين المواعيد، ويرشدنا إلى منازل، وفي كل ليلة نَجِدُ صاحب المنزل قد دعا أكثر من عشرين شخصاً؛ مبالغة منه في الاحتفاء بنا، ثم يدور الحديث حول مسائل من الدين، والأخلاق، وعادات الناس، وتصير الجلسة ندوة علم وأدب، وحديث نافع، وتعبير عن المحبة والود والأخوة، كما ارتضاها الله لعباده المؤمنين.

وكنا نزور الشيخ بين الحين والحين، ويكاد يكون لقاؤنا معه يوم الجمعة بانتظام نذهب إلى بيته قبل الصلاة بساعات ونجلس معه ثم ننزل معاً عندما يقرب موعد الصلاة.

وذات لقاء قلت له: يا فضيلة الشيخ لماذا لا تستخدم مكبر الصوت (الميكروفون) في الخطبة؛ فإن أكثر الناس لا يسمعون صوتك، ولا يستفيدون مما تلقيه عليهم من المواعظ والأحكام؟

فابتسم الشيخ وكان له بسمة خفيفة جميلة تنم عن الرضا والسرور، وقال: إن مكبر الصوت لم يدخل المساجد في بلاد نجد، ولا أحب أن أكون أول من يستخدمه.

قلت: ولماذا؟ ألست الشيخ العلم القدوة؟ إذا لم تفعل أنت ما تراه نافعاً فمن يفعله؟ أليس في استعماله خير وهو نشر تعاليم الدين وآدابه وإسماع أكبر عدد ممكن بواسطته؟ والنساء في بيوتهن حول المسجد يستمعن الخطبة عن طريق مكبر الصوت؛ فيكون الخير قد تجاوز حدود المسجد، ومن سن سنة حسنة فله أجرها

وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ ذلك لأنه سيتعرض لجهل الجاهلين، ونقد الناقدين، وسيصيبه من أقوال الناس وإيذائهم واستنكارهم لما لم يألفوه شيء كثير؛ فيكون له من أجل ذلك الأجر الكثير، ثم إنك يا فضيلة الشيخ إذا لم تستخدم مكبر الصوت في خطبة الجمعة فلن يجرؤ أحد على استخدامه من بعدك، وسيقول الناس: لو كان فيه خير لاستخدمه الشيخ السعدي؛ فتكون قد منعت استخدامه مستقبلاً من حيث لا تدري ولا تريد؛ فاتسعت الابتسامة على شفتي الشيخ، وقد استمع لكلامي كله مصغياً ومتأملاً، وهز رأسه يميناً وشمالاً في هدوء رتيب وقال: ما شاء الله لقد حدثني في ذلك غيرك، وما شرح الله صدري لذلك مثل ما شرحه الآن، وأعدك أن يكون في المسجد (مكبر صوت) في الجمعة القادمة ـ إن شاء الله ـ.

وبر الشيخ بوعده، وأمر بإحضار مكبر للصوت ذي ثلاث سماعات يعمل بواسطة البطارية؛ فلم تكن عنيزة قد عرفت الكهرباء بعد، وفرح الناس، وتحدثوا عن استماعهم للخطبة في غير جهد، وحرصت على أن أسمع رأيهم فلم أجد معارضاً وما سمعت إلا كلمات الاستحسان والسرور، وذهبت إلى الشيخ في بيته لأنقل إليه استحسان الناس وسرورهم؛ فإذا به ينقل إليَّ بشرى سارة مُؤَدَّاها أن الشيخ عبد الله السليمان كان يصلي هذه الجمعة في مسجد عنيزة، وقد أعجبه أن يكون في المسجد مكبر للصوت، فقابل الشيخ بعد الصلاة، وأبلغه أنه تبرع بماكينة كهرباء للمسجد تضيء خمسين لمبة ـ مصباحاً كهربائياً ـ ويشتغل عليها مكبر الصوت، فقلت: الحمد لله، ذلك فضل الله يؤتيه

من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

لقد كان الشيخ عبد الرحمن السعدي من الناحية الدينية هو كل شيء في عنيزة؛ فقد كان العالم، والمعلم، والإمام، والخطيب، والمفتي، والواعظ، والقاضي، وصاحب مدرسة دينية له فيها تلاميذ منتظمون.

كان يصلي الفجر بالناس، ثم يجلس لأداء الدرس حتى تطلع الشمس، ويذهب بعد ذلك إلى بيته حتى الضحوة الكبرى فيعود إلى المسجد يعلم أبناءه الفقه، والتفسير، والحديث، والعقيدة، والنحو، والصرف في دروس منتظمة، وكتب اختارها لطلابه، ويستمر معهم حتى صلاة الظهر، فيصلي بالناس، ويعود إلى بيته يستريح فيه إلى صلاة العصر، ثم يذهب إلى المسجد، فيصلي العصر بالناس ويعطيهم عقب الصلاة وهم جلوس بعض الأحكام الفقهية في دقائق لا تؤخرهم عن الانصراف سعياً وراء أرزاقهم، وعندما تغرب الشمس يصلي بالناس المغرب، ويجلس للدرس حتى يصلي العشاء، ويتكرر ذلك في كل يوم.

وطلاب الشيخ الذين علمهم في المسجد هم الذين تولوا التدريس في المدارس والمعاهد التي فتحتها الدولة في بلدتهم، فكان الشيخ يكتب بيده شهادة يقول فيها:

إن فلاناً درس علوم كذا وكذا في كتب كذا وكذا، وهو يصلح لتدريس هذه المواد في المستوى الابتدائي أو الإعدادي أو الثانوي، وتأخذ الدولة بشهادات الشيخ التي أثبتت التجربة فيما بعد أنها معبرة عن الحقيقة أصدق تعبير.

وكان من سيرته ـ عليه رحمة الله ـ أنه في موسم الحصاد تأتي إليه ثمار النخيل والبساتين التي وقفها أصحابها على المسجد الجامع ليؤدي رسالته الإسلامية العظيمة، فكان الشيخ يجمع كل هذه الثمار في المسجد، ويوزعها على الفقراء

والمساكين، ولا يأخذ تمرة واحدة يدخلها فاه، أو ينقلها إلى بيته.

وسألت أحد الأبناء المقربين إليه: من أين ينفق الشيخ على حاجات معيشته؟ فأخبرني أن له ابنين يعملان بالتجارة في الرياض، ويرسلان إليه ما يحتاج من النفقة، ولا مورد له غير هذا؛ فقلت: سبحان الله: إن خير ما يأكل المرء ما كان من كسب يده، وإن ولد الإنسان من كسبه، وهكذا تكون سيرة العلماء في الاكتفاء بالقليل، والزهد فيما يزيد على ذلك مع الاجتهاد في أداء الواجب والإخلاص فيه.

ومرت الأيام وفي نهاية عام ١٣٧٥هـ الموافق ١٩٥٦م بدأ العدوان الثلاثي على مصر وهاجمت فرنسا وإنجلترا وإسرائيل أرض مصر ولكل دولة منهم دوافعها الخاصة؛ فقد كانت فرنسا تريد أن تعاقب مصر على مساندة ثورة الجزائر ضدها، هذه المساندة التي وصلت إلى درجة تهريب الأسلحة والذخائر للثوار المسلمين في الجزائر، وقد وقعت الباخرة (عايدة) المصرية في يد الفرنسيين وهي تحمل الأسلحة إلى ثوار الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي؛ فأضمرت لذلك شراً وكان هجومها على مصر.

أما إنجلترا فكان هجومها من أجل أسهمها في قناة السويس التي أمَّمتها مصر، وأعادتها إلى الشعب المصري الذي حفر القناة بجهود أبنائه ودمائهم، وكانت مع ذلك تراودها الرغبة في إعادة سيطرتها مرة أخرى على مصر، ولم يكن جلاء قواتها عن الأراضي المصرية قد جاوز العامين بعد.

وانتهزت إسرائيل رغبة الدولتين الكبيرتين في الهجوم على مصر، واتفقت

معهما لخدمة أغراضها التوسعية العدوانية، ولضرب القوة العربية الإسلامية على أرض مصر.

وعرف الشيخ السعدي هذه الأبعاد كلها، وخطب الناس الجمعة في هذا الموضوع، ورفع الناس معه أكف الضراعة إلى الله أن يحمي القوة الإسلامية، وأن ينصر المسلمين، ويرد كيد الكافرين، وقد استجاب الله دعاءه، فخطب الشيخ في جمعة تالية مهنئاً ومبشراً ومذكراً بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾.

وقد كان للشيخ اهتمامات ظاهرة بأحوال المسلمين في كل بلادهم، وكانت مقالاته في الصحف والمجلات في داخل المملكة وخارجها تظهر هذه الاهتمامات، وكان يسألنا كثيراً عن أخبار مصر وأحوال المسلمين فيها وجهود علمائها في إقامة السنة، وإزالة البدعة مع دعاء حار، وأمل كبير في أن يصلح الله أحوال المسلمين.

ومع هذه الجهود المضنية التي كان يبذلها الشيخ كان كثير الكتابة والتأليف؛ فقد كتب تفسيراً للقرآن الكريم كله سماه (منحة اللطيف المنان في تفسير القرآن[1]) وله كتاب في الخطب المنبرية، ورسائل في العقيدة وسؤال وجواب، وفي بعض الموضوعات والقضايا الإسلامية، وقد تبرع بكتبه كلها وطبعها أهل الخير المحبون للشيخ وعلمه، ووزعوها بالمجان على أهل العلم وطلبته.

وفي شهر ربيع الثاني من عام ١٣٧٦هـ توفي الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ وحملت مع الناس نعشه، وكانوا يعرفون صلتي

---

١ ـ ليس هذا هو اسم تفسيره، وإنما هو ـ كما مر ـ (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان).

الوثيقة به فكانوا يفسحون لي كلما رغبت واقتربت، قائلين: إنه كان يحبك.

وإني لا أجد ما أصف به فضل هذا الشيخ وجهاده ومنزلته بين العلماء أحسن مما سمعته من عجوز جالسة على طريق الجنازة؛ فقد قالت ونحن نمر عليها نحمل نعشه، قالت العجوز في صدق وحرارة: «نجم هوى».

رحم الله الشيخ عبد الرحمن السعدي، وجعل سيرته الطيبة وأعماله الصالحة في موازين حسناته، وأكثر من أمثاله الذين يزهدون في الدنيا ويبتغون ما عند الله».

«ثانياً: نماذج من كتابات الشيخ عبدالرحمن السعدي»

للشيخ عبدالرحمن السعدي مؤلفات كثيرة، وذلك في موضوعات شتى ـ كما مر ـ.

وهذه المؤلفات مليئة بالنظرات الثاقبة، واللفتات البارعة، والاستنباطات الدقيقة التي تدل على ذكاء، وعبقرية، وسعة في الأفق، وتدبر للعواقب، ونظر في المقاصد العليا، والمصالح العامة.

كما أنها مليئة بالفوائد التربوية، والوصايا النافعة، والتجارب الناضجة، التي ربما لا تجد أكثرها في غير مؤلفاته رحمه الله.

وفيما يلي أمثلة من كتابات من بعض كتبه.

١ـ قال رحمه الله في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا﴾ النساء: ٧٧.

«كان المسلمون ـ إذ كانوا بمكة ـ مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة، ذات النُّصُب والشروط؛ فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري ـ تعالى ـ أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم؛ ويبدأ بالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال ـمع قلة عَدَدِهِم وعُدَدِهِم، وكثرة أعدائهمـ لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام؛ فروعي جانب المصلحة العظمى على ما دونها، ولغير ذلك من الحِكَم.

وكان بعض المؤمنين يَوَدُّون أَنْ لو فرض عليهم القتال في تلك الحال غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها، القيام بما أمروا به في ذلك الوقت، من التوحيد، والصلاة، والزكاة ونحو ذلك كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كتب عليهم القتال، في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس، وضعفاً وخوراً: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾.

وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال: التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره؛ فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هلا أخرت فرض القتال، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر؟

وهذه الحال كثيراً ما تَعْرِضُ لمن هو غَيْرُ رزين، واستعجل في الأمور قبل وقتها؛ فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر».

٢ـ وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ❖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ محمد: ٢٠-٢١.

يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من كراهتهم لذلك، وشدته عليهم.

وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

ثم ندبهم ـ تعالى ـ إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله ـتعالى ـ وعفوه.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب

زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ضعف عن العمل بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال؛ فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل؛ فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

٣ـ وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف: ١٩٩.

«هذه الآية جامعة، لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم؛ فالذي ينبغي أن يَعامِل به الناس أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول، وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع، باللطف، والمقابلة بما تقضيه الحال، وتنشرح له صدورهم.

﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أي: بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد؛ فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حثاً على خير، من صلة رحم، أو بَرٍّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية، أو دنيوية.

ولما كان لابد من أذية الجاهل أمر اللّه ـ تعالى ـ أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه».

٤ـ وقال في قصة موسى ـ مع الخضر ـ عليهما السلام ـ التي وردت في سورة الكهف: «وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد، والأحكام، والقواعد، شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله.

فمنها: فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى ـ عليه السلام ـ رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلمِ، والجمعُ بين الأمرين أكمل.

ومنها: جوازُ أخذِ الخادم في الحضر والسفر؛ لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه إذا اقتضت المصلحة الإخبار

بمطلبه، وأين يريده فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له، واتخاذ عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهته مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب وجوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً؛ لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكياً فطناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً؛ لأن ظاهر قوله: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ إضافة إلى الجميع أنه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافِقَ لأمر الله يعان ما لا يعان غيره؛ لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين.

وأما الأول، فلم يشتك منه التعب، مع طوله؛ لأنه هو السفر على الحقيقة،

وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً؛ لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مِنَّةَ الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً لذكر ذلك كما ذكره غيره.

وأما قوله في آخر القصة ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾، ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾.

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع علم لَدُنِّي، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده؛ لقوله ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب؛ لقول موسى ـعليه السلامـ: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذين لا يظهرون للمعلم افتقارهم إلى علمه، بل يدَّعون أنه يتعاونون هم وإياه، بل ربما ظن أحدهم أنه

يعلم معلمه، وهو جاهل جداً؛ فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه؛ فإن موسى ـ بلا شك ـ أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العلم الفاضل، للعلم الذي لم يَتَمهَّر فيه، ممن مهر فيه وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى ـ عليه السلام ـ من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله، وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص، كان عند الخضر، ما ليس عنده؛ فلهذا حرص على التعلم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدِّث إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوهما من العلوم أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله ـ تعالى ـ والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علمك الله ـ تعالى ـ.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير؛ فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك ـ فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك ـ أنه ليس بأهل لتلقي العلم؛ فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن

استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى فيه؛ لقول الخضر ـ يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبره، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ـ ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.

فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء؛ حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾.

فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة تُتَّبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً لا يتعلق بموضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله، ولا في حقوق العباد؛ لقوله: ﴿لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم، ويرهقهم؛ فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسر؛ ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال، والدماء وغيرها؛ فإن موسى ـ عليه السلام ـ أنكر على الخضر خَرْقَهُ السفينةَ، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى ـ عليه السلام ـ لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صَحِبَ عليها الخضر؛ فاستعجل ـ عليه السلام ـ وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير، ويراعي أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما؛ فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير؛ فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما خير من ذلك؛ فلذلك قتله الخضر.

وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر؛ فتزاحم

المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة ـ أيضاً ـ وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة؛ لتعيب؛ فَتَسْلَمَ من غصب الملك الظالم.

فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك؛ حفظا لمال الغير.

وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال؛ افتداءاً للباقي جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصا غير منكر؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم أفضل من غيرها؛ لأنه علّل

استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله ـ تعالى ـ في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾.

وأما الخير، فأضافه إلى الله ـتعالىـ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يُعْتِبَه، ويُعْذَر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاةٌ، وسببٌ لبقاء الصحبة، وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سببٌ لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قَدَرٌ محضٌ أجراها الله، وجعلها على يد هذا العبد الصالح؛ ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه؛ ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره الكريهة».

٥ـ وقال رحمه الله في تفسير سورة ص مبيناً الفوائد والحكم من قصة داود وسليمان ـعليهما السلامـ: « **فمنها**: أن اللّه ـ تعالى ـ يقص على نبيه محمد ﷺ أخبارَ مَنْ قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة

صبرهم وإنابتهم ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى اللّه الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه؛ ولهذا ـ في هذا الموضع ـ لما ذكر اللّه ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به ـ أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن اللّه ـ تعالى ـ يمدح ويحب القوة في طاعته: قوة القلب والبدن؛ فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى اللّه في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء اللّه وخواص خلقه، كما أثنى اللّه على داود وسليمان بذلك؛ فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهما السالكون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾.

ومنها: ما أكرم اللّه به نبيه داود ـ عليه السلام ـ من حسن الصوت العظيم، الذي جعل اللّه بسببه الجبال الصم، والطيور البهم يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم اللّه على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن اللّه به على عبده داود ـ عليه السلام ـ.

ومنها: اعتناء اللّه ـ تعالى ـ بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ.

ومنها: أن الأنبياء ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم ـ معصومون من الخطأ فيما

يبلغون عن اللّه ـ تعالى ـ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن اللّه يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود ـ عليه السلام ـ كان في أغلب أحواله ملازماً محرابه؛ لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوءُ أدبِ الخصمِ وفِعْلُه ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود ـ عليه السلام ـ فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك، أو «باغ علي» لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القدر، جليل العلم إذا نصحه أحد، أو وعظه ـ لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر؛ فإن الخصمين نصحا داود، فلم يشمئز، ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية

موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى اللّه، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة خصوصاً الصلاة من مكفرات الذنوب؛ فإن اللّه رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام اللّه لعبده داود وسليمان بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما مُنْقِصٌ لدرجتهما عند اللّه ـ تعالى ـ وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى؛ فأزال اللّه ـ تعالى ـ هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاها رسل اللّه وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان ـ عليه السلام ـ من فضائل داود، ومن منن اللّه عليه؛

حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم اللّه على عبده أن يهب له ولداً صالحاً؛ فإن كان عالماً كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء اللّه ـ تعالى ـ على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كثرة خير اللّه وبره بعبيده؛ أن يمنَّ عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة اللّه ـ تعالى ـ على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن اللّه؛ فإنه مشؤوم مذموم؛ فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «من ترك شيئاً لله عوضه اللّه خيراً منه» فسليمان ـعليه السلامـ عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس؛ تقديماً لمحبة اللّه؛ فعوضه اللّه خيراً من ذلك بأن سخر له الريح الرخاء اللينة التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان ـ عليه السلام ـ.

ومنها: أن سليمان ـعليه السلام ـ كان ملكاً نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد؛ فإنه تكون إرادته تابعة لأمر اللّه، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ وهذه الحال أكمل».

٦ـ وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً﴾ النساء: ٨٣.

«هذا تأديب من الله لعباده، عن فعلهم هذا، غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة، ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر؛ بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي، والعلم والنصح، والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها؛ فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك، وإن رأوا ما فيه مصلحة، أنه ليس فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة، وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع، لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه، هل هو مصلحة؟ فيُقْدِم عليه الإنسان، أم لا؟ فيُحْجِمُ عنه».

٧ـ وقال ﷺ مبيناً بعض ما ينبغي للإنسان أن يتحلى به في المجالس:

«إياك أن تتصدى في مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون ثرثاراً متصدراً بكل كلام.

وربما من جهلك وحمقك ملكت المجلس على الجلوس، وصرت أنت

الخطيب والمتكلم دون غيرك.

وإنما الآداب الشرعية والعرفية مطارحة الأحاديث، وكلٌ من الحاضرين يكون له نصيبٌ من ذلك، اللهم إلا الصغار مع الكبار، فعليهم لزوم الأدب، وأن لا يتكلموا إلا جواباً لغيرهم».[1]

٨ـ وقال رحمه الله مبيناً بعض آداب الحديث مع الناس على اختلاف طبقاتهم:

«ومن الآداب الطيبة الكلام مع كل أحد بما يليق بحاله ومقامه؛ مع العلماء بالتعلم والاستفادة والاحترام، ومع الملوك والرؤساء بالاحترام والكلام اللطيف اللين المناسب لمقامهم، ومع الإخوان والنظراء بالكلام الطيب، ومطارحة الأحاديث الدينية والدنيوية والانبساط الباسط للقلوب، المزيل للوحشة، المزين للمجالس.

ويحسن المزاح أحياناً إذا كان صدقاً، ويحصل فيه هذه المقاصد.

ومع المستفيدين من الطلبة ونحوهم بالإفادة، ومع الصغار والسفهاء بالحكايات والمقالات اللائقة بهم بما يبسطهم ويؤنسهم، ومع الأهل والعيال بالتعليم للمصالح الدينية والدنيوية، والتربية البيتية، وتوجيههم للأعمال التي تنفعهم مع المباسطة والمفاكهة؛ فإنهم أحق الناس بِبِرِّك، ومن أعظم البر حسن المعاشرة.

ومع الفقراء والمساكين بالتواضع، وخفض الجناح، وعدم الترفع والتكبر عليهم.

فكم حصل بهذا من خيرات و بركات، وكم حصل بضده من شر وفوات خير.

١ـ الرياض الناضرة ضمن المجموعة الكاملة لابن سعدي، الخامس ص٥٤٩.

ومع من تعرف منه العداوة والبغضاء والحسد بالمجاملة، وعدم الخشونة، وإن أمكنك الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ (فصلت: ٣٤) ـ فما أكمله من مقام لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم».[١]

٩ـ وقال ـ أيضاً ـ: «ومن الآداب الطيبة إذا حدَّثك المحدِّث بأمر ديني أو دنيوي ألا تنازعه الحديث إذا كنت تعرفه، بل تصغي إليه إصغاء من لا يعرفه، ولم يَمُرَّ عليه، وتريه أنك استفدت منه، كما كان أَلِبَّاءُ الرجال يفعلونه.

وفيه من الفوائد تنشيط المحَدِّث، وإدخال السرور عليه، وسلامتك من العجب بنفسك، وسلامتك من سوء الأدب؛ فإن منازعة المحدث في حديثه من سوء الأدب».[٢]

١٠ـ وسئل عن الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب فأجاب إجابة عظيمة قد لا تظفر بها في غير هذا الجواب.

قال رحمه الله: «الجواب وبالله التوفيق: أما مضاعفةُ العملِ بالحسنةِ إلى عَشْرِ أمثالِها ـ فهذا لا بدَّ منه في كلِّ عملٍ صالح، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ الأنعام: ١٥٩

وأما المضاعفةُ بزيادةٍ عن ذلك ـ وهي مراد السائل ـ فلها أسبابٌ: إما متعلقةٌ بالعاملِ، أو بالعمل نفسِه، أو بزمانه، أو بمكانه، وآثاره.

١ـ الرياض الناضرة ص٤٥٨ـ٥٤٩.

٢ـ الرياض الناضرة ص٥٤٨.

فمن أهمِّ أسباب المضاعفةِ إذا حقَّق العبدُ في عَمَلِهِ الإخلاصَ للمعبودِ والمتابعةَ للرسول؛ فالعمل إذا كان من الأعمالِ المشروعةِ، وقَصَدَ العبدُ به رضى ربِّه وثوابَهُ، وحقق هذا القصدَ بأن يجعلَه هو الداعيَ له إلى العمل، وهو الغايةَ لعمله، بأن يكون عَمَلُه صادراً عن إيمان بالله ورسوله، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع، وأن يكون القصدُ منه وجهَ اللهِ ورضاه، كما ورد في عدة آياتٍ وأحاديثَ ـ هذا المعنى، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٢٧.

أي المتقين الله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة.

وكما في قوله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وغيرها من النصوص.

والقليلُ من العمل مع الإخلاص الكامل يَرجَحُ بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص.

ولهذا كانت الأعمالُ الظاهرةُ تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص.

ويدخل في الأعمالِ الصالحةِ التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص ـ تركُ ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصاً من قلبه، ولم يكن لتركها من الدواعي غيرُ الإخلاصِ، وقصةُ أصحابِ الغارِ شاهدةٌ بذلك.

ومن أسباب المضاعفة ـ وهو أصل وأساس لما تقدم ـ صحةُ العقيدة، وقوةُ

الإيمان بالله وصفاته، وقوةُ إرادة العبد، ورغبتُهُ في الخير؛ فإن أهلَ السنة والجماعة المحضة، وأهلَ العلم الكامل المفصَّل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله ـ تُضاعفُ أعمالُهم مضاعفةً كبيرةً لا يحصل مثلُها، ولا قريبٌ منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة.

ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قَعَدتْ بهم أعمالُهم قامت بهم عقائدُهم، وأهلُ البدع إن كثرت أعمالُهم قَعَدتْ بهم عقائدهم.

ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون، ومعلومٌ الفرقُ بين مَنْ يمشي على الصراط المستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايتُه أن يكون ضالاً متأولاً.

ومن أسباب مضاعفة العمل أن يكون من الأعمال التي نَفْعُها للإسلام والمسلمين له وقْعٌ وأثرٌ وغَنَاءٌ، ونفعٌ كبيرٌ، وذلك كالجهاد في سبيل الله: الجهاد البدنيِّ، والماليِّ، والقوليِّ، ومجادلةِ المنحرفين، كما ذكر اللهُ نفقةَ المجاهدين ومضاعفتَها بسبعمائة ضعف.

ومن أعظم الجهاد سلوكُ طرقِ التعلم والتعليم؛ فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيتُه لا يوازنه عملٌ من الأعمال؛ لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه؛ «فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة».

ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانةٌ للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعُها، ويتسلسل إحسانُها، كما ورد في (الصحيح): «إذا مات العبد

انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به من بعده، أو ولدٍ صالح يدعو له».

ومن الأعمال المضاعفةِ العملُ الذي إذا قام به العبدُ شاركه به غيرُه؛ فهذا ـأيضاًـ يضاعَفُ بحسب مَنْ شاركه، ومن كان هو سببَ قيامِ إخوانه المسلمين بذلك العمل؛ فهذا ـ لا ريب ـ يزيد أضعافاً مضاعفةً على عمل إذا عمله لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها.

ولهذا فضَّل العلماء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة.

ومن الأعمال المضاعفة إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان في إنجاء من مهلكة، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين؛ فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من العقاب، وفوزه بجزيل الثواب، حتى البهائمُ إذا أُزيل ما يضرُّها كان الأجر عظيماً؛ وقصة المرأة البغيِّ التي سقت الكلبَ الذي كاد يموت من العطش؛ فَغُفِرَ لها بَغْيُها ـ شاهدةٌ بذلك.

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العبدُ حسنَ الإسلامِ، حسنَ الطريقة، تاركاً للذنوب، غير مُصِرٍّ على شيء منها؛ فإن أعمال هذا مضاعفةٌ كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «إذا أحسن أحدُكم إسلامَه فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف...» الحديث.

ومن أسبابها رِفْعَةُ العاملِ عند الله، ومقامُهُ العالي في الإسلام؛ فإن الله ـتعالىـ شكور حليم؛ لهذا كان نساء النبي ﷺ أجرهن مضاعفاً، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ

يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ الأحزاب: ٣١.

وكذلك العالِمُ الربانيُّ، وهو العالِم العامِلُ المعلِّم تكون مضاعفةُ أعمالِه بحسب مقامه عند الله كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب كان أعظمَ من غيرهم؛ لما يجب عليهم من زيادة التحرّز، ولما يجب عليهم من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم.

ومن الأسبابِ الصدقةُ من الكسب الطيب كما وردت بذلك النصوص.

ومنها شرفُ الزمان، كرمضانَ وعشرِ ذي الحجة ونحوِها، وشرفُ المكان كالعبادة في المساجد الثلاثة، والعبادةُ في الأوقات التي حثَّ الشارعُ على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها.

وهذا راجع إلى تحقيق المتابعةِ للرسول المُكَمِّلِ ـ مع الإخلاص ـ للأعمال، المنمي لثوابها عند الله.

ومن أسباب المضاعفةِ القيامُ بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية؛ فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفةً، وأمثلة هذا كثيرة جداً، ولكن هذا ضابطُها.

ومن أهم ما يضاعف فيه العملُ: الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل؛ فكلما كانت هذه الأمور أقوى كان الثواب أكثر.

ولهذا ورد في الحديث: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها».

فالصلاة، ونحوها وإن كانت تجزئُ إذا أتى بصورتها الظاهرةِ، وواجباتها الظاهرة والباطنة ـ إلا أن كمالَ القبولِ، وكمالَ الثوابِ، وزيادةَ الحسناتِ،

ورفعةَ الدرجاتِ، وتكفيرَ السيئاتِ، وزيادةَ نورِ الإيمان ـ بحسب حضور القلب في العبادة.

ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصولُ أثره الحسن في نفع العبد، وزيادةِ إيمانه، ورقة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل؛ فإن الأعمال كلما كملت كانت آثارُها في القلوب أحسنَ الآثارِ، وبالله التوفيق.

ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سبباً لمضاعفة الثواب؛ فإن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينه، ومنهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

كما أن إعلانها قد يكون سبباً للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يَعْرِضُ للعمل المفضول من المصالح ما يصيِّره أفضل من غيره.

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيءٌ من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وغيرُها من الأعمال تبعٌ لها؛ فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون المقربون في جنات النعيم»[1].

١١ـ وقال ﷺ حاثاً على العلم، مبيناً فضله: «فالعلم عبادة تجمع عدة

---

١ ـ الفتاوى السعدية ص٣٥ـ٣٩، وقد يسر الله لي شرح هذا الجواب في كتاب يقع في ١٧٠ صفحة.

قربات: التقرب إلى الله بالاشتغال به؛ فإن أكثر الأئمة نصوا على تفضيله على أمهات العبادات ـ وذلك في أوقاته الزاهرة بالعلم، فكيف بهذه الأوقات التي تلاشى بها وكاد أن يضمحل، والاستكثارُ من ميراث النبي ﷺ وأن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، ونفعه واصل لصاحبه، ومتعدٍّ إلى غيره، ونافع لصاحبه حياً وميتاً، وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد ـ فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما انْتُفِع بإرشادهم، واهْتُدِي بأقوالهم وأفعالهم؛ فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن يعده ليوم فقره، وفاقته».[1]

١٢ـ وقال ﷺ في كتابه (وجوب التعاون بين المسلمين ص٢٥ـ٢٦) في فقرة عنوانها (الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد): «قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ التحريم: ٦، وذلك بالتعليم، والتأديب، والتربية.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر: ٩.

وذلك أن من أعظم أنواعِ الإصلاح، والجهادِ ـ التربيةَ الدينيةَ، والاهتمامَ التام، والاعتناء الكامل بشباب الأمة؛ فإنهم محلُّ رجائها، وموضعُ أملِها، ومادةُ قوتها، وعزها.

وبإصلاح تربيتهم تصلح الأحوال؛ فيكون المستقبل خيراً مما قبله.

فعليهم أن يربوهم تربية عالية، ويبثوا فيهم روح الدين، وأخلاقه الجملية،

١ـ الفتاوى السعدية ص٧٣.

والحزم، والعزم، وجميع مبادئ الرجولة والفتوة والمروة، وأن يدربوهم على الصبر، وتحمل المشاق الذي يفضي إلى النجاح، والمثابرة في كل عمل نافع، ويحذروهم من الجبن، والكسل، والسير وراء الطمع، والمادة، والانطلاق في المجون، والهزل، والدعة؛ فإن ذلك مدعاة للتأخر الخطير.

وشبابُ الحاضر هم رجالُ المستقبل، وبهم تعقد الآمال، وتدرك الأمور المهمة؛ فعليهم أن يجتهدوا ليكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروة والكمال القدوة المثلى.

ومن أعظم أركان التربية العامة النافعة ـ إصلاح التعليم، والاعتناء بالمدارس العلمية، وأن يختار لها الأكفاء من المعلمين، والأساتذة الصالحين الذين يتعلم التلاميذ من أخلاقهم الفاضلة قبل ما يتلقون من معلوماتهم العالية.

ويختار لهم من فنون العلم الأهم فالأهم من العلوم النافعة الدينية والدنيوية المؤيدة للدين.

وأن تكون العلوم الدينية هي الأصل، والأساس الأقوم، ويكون غيرها تبعاً لها، ووسيلة إليها.

وأن يكون الغرض الوحيد من المتخرجين في المدارس، الناجحين في علومها ـ أن يكونوا صالحين في أنفسهم، وأخلاقهم، وآدابهم، وأن يكونوا مصلحين لغيرهم، راشدين مرشدين، مهتمين بتربية الأمة».

وقال في موضع آخر ص٨ـ٩ تحت فقرة عنوانها (الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام

الألفة واتحاد الكلمة): «فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية في جميع أفرادهم وشعوبهم، وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة.

ومن أنفع الأمور أن يتصدى لهذا الأمر جميع طبقات المسلمين من العلماء والأمراء والكبراء وسائر الأفراد منهم كل بحسب إمكانه».

١٣ـ وقال رحمه الله في شرح حديث: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به من بعده، أو ولدٍ صالح يدعو له»[1].

قال: «دار الدنيا دار عمل، يتزود منها العباد من الخير، أو الشر للدار الأخرى، وهي دار الجزاء.

وسيندم المفرطون إذا انتقلوا من هذه الدار ولم يتزودوا لآخرتهم ما يسعدهم، وحينئذ لا يمكن الاستدراك، ولا يتمكن العبد أن يزيد حسناته مثقال ذرة، ولا يمحو من حسناته كذلك.

وانقطع عمل العبد إلا هذه الأعمال الثلاثة التي هي من آثار عمله.

الأول: الصدقة الجارية: أي المستمر نفعها، وذلك كالوقف للعقارات التي ينتفع بمغلَّها، أو الأواني التي ينتفع باستعمالها، أو الحيوانات التي ينتفع بركوبها ومنافعها، أو الكتب والمصاحف التي ينتفع باستعمالها والانتفاع بها،

---

١ ـ رواه مسلم (١٦١٣).

أو المساجد والمدارس والبيوت وغيرها التي ينتفع بها.

فكلها أجرُها جارٍ على العبد ما دام يُنْتفع بشيء منها.

وهذا من أعظم فضائل الوقف، وخصوصاً الأوقاف التي فيها الإعانة على الأمور الدينية، كالعلم، والجهاد، والتفرغ للعبادة، ونحو ذلك.

ولهذا اشترط العلماء في الوقف أن يكون مصرفه على وجهة برٍّ وقربة.

الثاني: العلم الذي ينتفع به من بعده: كالعلم الذي علَّمه الطلبة المستعدين للعلم، والعلم الذي نشره بين الناس، والكتب التي صنفها في أصناف العلوم النافعة.

وهكذا كل ما تسلسل الانتفاع بتعليمه مباشرة، أو كتابة؛ فإن أجره جارٍ عليه.

فكم من علماء هداة ماتوا من مئات من السنين كتبهم مستعملة، وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم، وذلك فضل الله.

الثالث: الولد الصالح: ولدُ صلبٍ، أو ولدُ ابنٍ أو بنتٍ ذكرٌ أو أنثى ينتفع والدُه بصلاحه، ودعائه.

فهو في كل وقت يدعو لوالديه بالمغفرة والرحمة، ورفع الدرجات وحصول المثوبات.

وهذه المذكورة في هذا الحديث هي مضمون قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ يس: ١٢.

فـ: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ هو ما باشروه من الأعمال الحسنة، أو السيئة.

و﴿ آثَارَهُمْ ﴾ ما ترتب على أعمالهم مما عمله غيرهم، أو انتفع به غيرهم.

وجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة:

الأول: أمور عمل بها الغير بسببه، وبدعايته، وبتوجيهه.

الثاني: أمور انتفع بها الغير أيَّ نفع كان على حسب ذلك النفع باقتدائه به في الخير.

الثالث: أمور عملها الغير وأهداها إليه، أو صدقة تصدق بها عنه، أو دعا له، سواء أكان من أولاده الحسيين أو من أولاده الروحيين الذين تخرجوا بتعليمه، وهدايته وإرشاده، أو من أقاربه وأصحابه المحبين، أو من عموم المسلمين بحسب مقاماته في الدين، وبحسب ما أوصل إلى العباد من الخير، أو تسبب به، وبحسب ما جعل الله له في قلوب العباد من الود الذي لا بد أن تترتب عليه آثاره الكثيرة التي منها: دعاؤهم، واستغفارهم له.

وكلها تدخل في هذا الحديث الشريف.

وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدة منافع، كالولد الصالح العالم الذي سعى أبوه في تعليمه، وكالكتب التي يقفها، أو يهبها لمن ينتفع بها.

ويستدل بهذا الحديث على الترغيب في التزوج الذي من ثمراته حصول الأولاد الصالحين، وغيرها من المصالح، كصلاح الزوجة، وتعليمها ما تنتفع به، وتنفع غيرها، والله أعلم».[1]

١ـ بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ص٩٤ـ٩٦.

١٤ـ وقال ﷺ حاثاً على حفظ السر، محذراً من إفشائه: «كن حافظاً للسر، معروفاً عند الناس بحفظه؛ فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفظوا إليك بأسرارهم، وعذروك إذا طويت سر غيرك الذي هم عليه مشفقون، وخصوصاً إذا كان لك اتصال بكل واحد من المتعادين؛ فإن الوسائل لاستخراج ماعندك تكثر وتتعدد من كلٍ من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحاً أو تعريضاً.

واعلم أن للناس في استخراج ماعند الإنسان طرقاً دقيقةً، ومسالكَ خفيةً؛ فاجعل كل احتمال ـ وإن بعد ـ على بالك، ولا تؤتَ من جهةٍ من جهاتك؛ فإن هذا من الحزم.

واجزم بأنك لاتندم على الكتمان، وإنما الضرر، والندم في العجلة، والتسرع، والوثوق بالناس ثقةً تحملك على ما يضر».[1]

١ـ الرياض الناضرة ص٢١٠.

«ثالثاً: لطائف من سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدي»

سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدي وحياته ترجمة عملية لما يحمله ويدعو إليه من علم وخلق، وعبادة.

وإذا أنعمت النظر في سيرته، وسمعت ما يذكر من أخباره تجلت لك شخصية الشيخ رحمه الله في مظهر العالم العامل الذي يتمثل أخلاق الإسلام بيسر وسهولة.

وفيما يلي من صفحات لُمعٌ ونماذج من تلك السيرة الغراء، وقد أفدت فيها من رواية ابنه الأستاذ محمد بن عبدالرحمن السعدي، الذي أملى شيئاً من سيرة والده، ثم قام بكتابتها حفيد الشيخ الأستاذُ مساعد بن عبدالله السعدي ابن ابنة الشيخ؛ حيث أخرج تلك الإملاءات وزاد عليها ما يعرفه عن سيرة جده في مذكرة أسماها: (مواقف اجتماعية من حياة الشيخ الوالد عبدالرحمن بن ناصر السعدي)، وقد بعث بها إليَّ مشكوراً مأجوراً[1].

كما أفدت من الروايات الشفوية التي سمعتها من بعض أقارب الشيخ، ومحبيه وتلامذته، وخصوصاً عبدالرحمن وعبدالعزيز ابني أخيه حمد[2]؛ فإلى

---

١ ـ بعض ما في تلك المذكرة مكتوب باللهجة العامية، فقمت بإعادة صياغتها من جديد، وربما نقلت الكلام بنصه.

٢ـ حيث جلست مع كل واحد منهما على حدة أكثر من مرة في مدينة الدمام آخرها يوم الجمعة ١٤٢٧/٤/٧هـ، وهما ممن عاصر الشيخ، بل ممن عاش معه في المنزل إبان مكثه مع والدهما.

وعبدالرحمن بن حمد ولد سنة ١٣٣٣هـ تقريباً، ورضع مع عبدالله بن الشيخ عبدالرحمن السعدي، وعبدالعزيز بن حمد ولد سنة ١٣٤١هـ وهو في سن محمد بن الشيخ عبدالرحمن، وقد رضع معه.

وعلى هذا يكون الشيخ عبدالرحمن والداً من الرضاع لعبدالرحمن وعبدالعزيز ابني أخيه حمد.

تلك اللطائف التي تُبِين عن حلم الشيخ وعلمه، وكرمه، وبساطته، ونبله، واستواء طرائقه، وحبه للناس، وحرصه على نفعهم، إلى غير ذلك من تلك السجايا الكريمة.

كان الشيخ عبدالرحمن ﷺ حريصاً كل الحرص على تطبيق السنة، ويتجلى ذلك من أمور كثيرة.

منها أنه كان يقتصد في وضوئه؛ فلا يزيد على مقدار كأس أو كأس ونصف من الماء.

وكان يصوم أيام البيض من كل شهر، وكان مقتصداً في مأكله ومشربه.

وكان لا يحرص على الأدوية؛ توكلاً على الله ـ عز وجل ـ.

وكان يحرص على قيام الليل وإحيائه بالذكر، والصلاة، والتلاوة.

بل يظهر أنه كان يطيل قيام الليل، وشاهد ذلك ـ كما يقول ابنه محمد ـ أنه كان لديه دلةٌ صغيرة يصنع فيها قهوة البن، ويقوم بتسخينها، وشربها بين التسليمات؛ لأجل أن يقوى، وينشط على قيام الليل، ولكيلا يغلبه النوم.

وكان ﷺ سخياً جواداً في كل مراتب السخاء والجود، سواء كان ذلك في العلم، أو المال، أو الوقت، أو الجاه، أو العفو، أو الخلق، أو الإكرام، أو البشاشة والبسطة أو غير ذلك من مراتب السخاء والجود.

ومن مظاهر ذلك أنه كان يهش للأضياف، ويقوم على خدمتهم، ويصنع الشاي والقهوة لهم بنفسه، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

وكان عزيز النفس، ويتجلى ذلك المعنى في كثير من الأمور؛ ومن ذلك أنه

ـكما يقول ابنه محمدـ لا يحب أن يكلف أحداً بأي عمل، ولا يرغب بأن يأمر أحداً من الناس.

وفي بعض فصول الشتاء يتجمد الماء، ومع ذلك يتوضأ منه، ولا يكلف أحداً من أهل بيته بتسخينه.

وكان يقوم بصيانة منزله بنفسه، كفتح باب في الجدار، أو عمل رفوف، أو ترقيع المنزل، أو سد الشقوق التي ينزل المطر من خلالها.

وكان يغسل ملابسه بنفسه؛ لأجل أن تفرغ زوجته لباقي أعمال المنزل.

بل كان يقوم على رعاية بهائمه، وكانت عنده بقرة، وكان يوليها اهتمامه، ولا ينام إلا وقد تأكد من وجود عشائها عندها، وكونها في مكان دافئ خصوصاً في ليالي الشتاء الباردة.

وكان يحمل الأحجار الثقيلة إلى مكان حفظ التمر ـ أو ما يسمى بـ: الجصة ـ دون طلب مساعدة من أحد، مما كان له أثره في جسده.

وكان لا يطلب من أحد نسخ كتبه أو شيء من مؤلفاته، بل كان يعطي بعض النساخ من طلبة العلم أجراً؛ لأجل ذلك.

وكان ورعاً، ومن دلائل ذلك أنه لم يكن يأخذ شيئاً من حقوقه المقررة له من أوقاف الجامع، بل يفرقها على المحتاجين.

وكان حريصاً على نفع الناس، وكانت الصدقات والزكوات تُرسَل إليه من قبل بعض الموسرين سواء من عنيزة أو من خارجها، فيقوم بتسجيلها، وضبطها، وإرسالها بمعرفته إلى مستحقيها، ثم يكتب إلى المحسنين يبين لهم كيفية

وصول صدقاتهم أو زكواتهم إلى أهلها.

وكان له برنامج ونظام يومي، يبدؤه بقيام الليل ـ كما مر ـ وعند أذان الفجر يذهب إلى المسجد الجامع، فيؤم المصلين.

ثم بعد ذلك يذهب إلى منزل صديقه الخاص الشيخ يوسف بن عبدالعزيز الشبل، فيتناول عنده القهوة والحليب فحسب، ثم يتدارسون ما تيسر من القرآن الكريم تلاوةً، وحفظاً.

ويحضر مجلسهم ذلك عدد من الأصدقاء وطلبة العلم.

وبعد طلوع الشمس بما يقرب من نصف الساعة ينفض ذلك المجلس، وينصرف الشيخ إلى منزله، أو إلى بيت مَنْ دعاه إذا كان مدعواً عند أحد.

وإذا دخل منزله سلم على أهل بيته، وتحدث إليهم، ثم بعد ذلك يذهب إلى المسجد الجامع لإلقاء دروسه.

وفي الساعة التاسعة والنصف يعود إلى منزله؛ ليتناول ما يتيسر من الطعام مع أولاده، ثم يعود إلى المسجد لإلقاء الدروس.

وبعد ذلك يعود إلى منزله، ويجلس للمطالعة والتأليف والكتابة، والرد على الرسائل التي ترد إليه من الداخل والخارج.

وكانت أوقاته مليئة بالقراءة، والكتابة، والتأليف، والعلم، والتعليم، والفتوى، وقضاء حوائج الناس، والقيام بمصالحهم، وإجابة دعواتهم.

وكان له مكان بأعلى درج المنزل يجلس فيه للقراءة، والكتابة، والتأليف وهذا المكان منعزل، هادئ يدخله النور والهواء، ومساحته صغيرة تقع في متر ونصف

طولاً، ومتر ونصف عرضاً.

ويوجد فيه بساط يجلس عليه، ومتكأ يتكئ عليه.

وكان في ذلك المكان كُوَّةٌ تطل على السوق؛ فيرى من خلالها الناسَ، ويسمع كلامهم، وهم لا يرونه ولا يسمعون كلامه.

يقول الأستاذ مساعد السعدي ـ حفيد الشيخ ـ: «وقد روت لي الوالدة ـحفظها اللهـ وهي تتذكر تلك الأيام التي يجلس فيها والدها الشيخ رحمه الله في ذلك المكان الضيق الطيني الذي خرج منه المؤلفات العظيمة ـ أنها كانت تراه معظم أوقاته والقلم بيده، والدفاتر والأوراق بجانبه.

وتتذكر أنه كان يجاذبها الحديث، ويده تكتب، فلا يمل من الكتابة ولا التأليف، والنسخ، والرد على المستفتين، وتدوين صكوك الأوقاف القديمة والجديدة، وتثبيت المداينات بين الناس».

وكان قبل أذان الظهر بخمس وأربعين دقيقة يخلد إلى النوم، وقبيل الأذان يقوم، ويتوضأ، ويذهب إلى المسجد.

وبعد صلاة الظهر يذهب لمن استضافه على القهوة، وكان كثيراً ما يجيب دعوات الناس، ولا يزيد في تلك المجالس على نصف الساعة إلا في بعض الأحيان.

وبعد ذلك يذهب إلى منزله، ويتوضأ، ثم يتوجه إلى المسجد لإلقاء دروسه حتى أذان العصر، ثم يصلي، وبعد الصلاة يُقرأ عليه في كتب الحديث أو غيرها، ثم يقوم بالتعليق اليسير الذي لا يزيد على ربع الساعة.

وبعد ذلك يرجع إلى بيته، ويجلس في المكان الذي اعتاد فيه على المطالعة والتأليف، ثم يتناول طعام العشاء كما هي عادة كثير من أهل نجد في ذلك الزمان؛ حيث يتناولون العشاء في منتصف العصر.

يقول ابنه محمد: «وبعد أن يعد الطعام أنادي الوالد من أسفل الدرج ـ وأقول له بلهجة أهل نجد: يبه يبه: العشاء جاهز.

ومن لطفه رحمه الله وتواضعه يرد قائلاً: سَمْ سَمْ.

وهي كلمة معروفة عند أهل نجد تفيد اللطف، والإجابة، والموافقة، والاحترام، وغالباً لا تصدر إلا من الصغير في حق الكبير.

ولكن الشيخ؛ لفرط لطفه يقولها لولده.

وقبل غروب الشمس بمقدار نصف الساعة يذهب وحده، أو بصحبة صديقه الشيخ عبدالعزيز بن محمد البسام رحمه الله ت١٤١٣هـ إلى مزرعة المنصور، وهي قريبة من المسجد فيتوضآن، ويستعدان للصلاة، ومع أذان المغرب يكون الشيخ في المسجد لإمامة الناس.

وبعد صلاة المغرب يجلس لدرس التفسير، ويحضر لديه جمع من طلاب العلم وغيرهم؛ فيستمر الدرس إلى أذان العشاء، وكان الشيخ يلقي الدرس بلغة قريبة مفهومة، ويجيب على أسئلة الحاضرين بأسلوب ميسر قريب للخاصة والعامة.

وبعد ذلك يؤم الناس للصلاة، ويراعي أحوال المصلين، وكان له صوت جميل بالقرآن.

وبعد صلاة العشاء يذهب إلى منزل من يستضيفه على القهوة، ويجلس عنده نصف ساعة ثم يرجع إلى منزله.

وفيما بين الساعة التاسعة إلى العاشرة ليلاً بالتوقيت الزوالي يكون الشيخ قد آوى إلى فراشه؛ للنوم؛ فهذا هو نظامه اليومي على سبيل التقريب.

وكان رحمه الله يكثر من تلاوة القرآن ومراجعته في شهر رمضان.

وكان رحمه الله يجيب عن أسئلة النساء؛ اقتداءاً بالنبي ﷺ حيث يحضر إلى منزل الشيخ نسوة كثيرات، فيجلسن، فيسألن الشيخ، وهو يجيب عن أسئلتهن.

وإذا كانت الأسئلة خاصة، أو فيها شيء من الحرج ألقت الواحدة منهن السؤال على أم عبدالله زوجة الشيخ ـ رحمها الله ـ ثم تقوم بإلقائه على الشيخ مباشرة والنسوة يستمعن، فيقوم الشيخ بالجواب عن السؤال.

وكان رحمه الله يفسر الأحلام أحياناً؛ فإذا كان الحلم مزعجاً حث السائل على تقوى الله وأرشده إلى بعض الآداب الخاصة بالرؤيا.

وإذا كانت الرؤيا مبشرة هنأ الرائي، وأوصاه بشكر الله.

وكان رحمه الله حافظاً للسر؛ فلا يفشيه لأقرب الناس إليه؛ فتأتيه المرأة، وتخبره بما حدث لها مع زوجها، والزوج كذلك يخبره بما حدث بينه وبين زوجته؛ فيجدون العلاج الناجع، والطب النافع.

وهكذا كان الناس يستشيرونه، ويعرضون عليه مشكلاتهم.

يقول ابنه محمد: «وما كنا نعرف ما يدور بينه وبين أصحاب المشكلات حتى نسمع ذلك من أصحاب المشكلة أنفسهم.

أما الوالد فكان حافظاً لأسرار الناس».

وكان رحمه الله **حريصاً على جمع الكلمة**، مجتنباً كل سبب يفضي إلى الفرقة والشقاق؛ لذا فإنه لم يكن يحب الدخول في القضاء، وشؤون قاضي البلد.

ومما يؤثر عنه في ذلك أنه كان يرى أن التلفظ بالطلاق بالثلاث في مجلس واحد أنها تقع طلقة واحدة.

لكنه لم يكن يفتي بذلك؛ لأن الفتوى السائدة آنذاك كانت بخلاف ما يراه؛ فإذا سئل في موضوع الطلاق أحال السائل إلى القاضي؛ لأنه يرى أن في ذلك مصلحة واجتماعاً، وبعداً عن سبل الشقاق.

وكان يطالع في الصحف، والمجلات الإسلامية التي تصدر في المملكة وخارجها، بل كان يشارك فيها، ويراسل أصحابها؛ فله مقالات ـ على سبيل المثال ـ في مجلة المنار التي يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا، كما في مقالة له في عددها الصادر سنة ١٣٤٦هـ وله عدة مقالات متسلسلة في العدد الثالث عام ١٣٦٧هـ، من مجلة المنار التي أسسها الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري رحمه الله.

كما كان يشارك في الكتابة في مجلة اليمامة التي أسسها الشيخ حمد الجاسر رحمه الله.

وكان يحرص على تطييب قلوب الناس، وإدخال السرور عليهم؛ فكان يفاجئ المرضى، وكبار السن بالزيارة.

وإذا علم أن أحداً من أصدقائه عنده مأدبة أتى إليهم ولو بدون موعد؛ لعلمه أن ذلك يَسُرُّهم.

وكان إذا أراد الدخول إليهم طرق الباب بالعصا حتى يشعرهم أنه قادم؛ وخشية أن يفجأهم؛ فيحرجهم.

ولقد أسر إلى بعض أصدقائه من طلبة العلم الذين يرافقونه في الدعوات ـكما يقول ابنه محمدـ أَنْ إذا كنا في مناسبة، وكثر اللغط من قبل الحاضرين فاسألني سؤالاً، أو اذكر مسألة علمية؛ حتى أجد مدخلاً أرفع فيه المجلس عن ذلك اللغط.

وهذا من ذوقه، ولطفه، وحسن تأتِّيه؛ فإذا تكلم أنصت الحاضرون، وتحول مجلسهم إلى مجلس علم، وفائدة، ومتعة حقة.

ولا تخلو مجالسه رَحِمَهُ اللَّهُ من الطرافة، والفكاهة، والمزاح اللطيف الخفيف الذي يدخل السرور والنشاط على الحاضرين.

وكان كثيراً ما يمازح الصغار، والكبار، والأغنياء، والفقراء كل بحسبه مع بُعْده عن ساقط الكلام، ومرذوله.

وكان له مستشارون يطلعهم على بعض أموره، ويستنير بآرائهم.

ومن لطائف سيرته أن دورَه لم يكن مقتصراً على الدروس التي تلقى في الجامع، أو المساجد، أو الإشراف على المعهد العلمي فحسب.

بل كان له ـ مع ذلك ـ محاضرات ودروس مرتبة كل ثلاثاء في معهد عنيزة العلمي، والمدرسة التي أنشأها ابن صالح رَحِمَهُ اللَّهُ فيلتقي هنالك المعلمين والطلاب، ويتحدث إليهم، ويجيب عن أسئلتهم، ويشجعهم على طلب العلم، ويحضر احتفالاتهم، ونواديهم التي يمارسون فيها أنشطتهم الطلابية.

ومن اللطائف في سيرته في التأليف أن أوائل مؤلفاته منظومة أصول الفقه التي انتهى منها في ١٣٣١/١١/١٨هـ وعمره أربع وعشرون سنة.

وأنه جمع كتاب الإنصاف ونظم ابن عبدالقوي في ثمان مجلدات، وكان مبتداه في ١٣٣٧/٩/٤هـ وعمره ثلاثون سنة، وانتهى منه في جمادى الأول سنة ١٣٣٩هـ، وقد بلغت صفحاته ألفين وأربعمائة وستة وخمسين صفحة من القطع الكبير.

كما أن أغلب مؤلفاته المشهورة كتبت بين عامي ١٣٥٥ إلى ١٣٧٦هـ.

ومن أواخر كتبه؛ كتاب (القواعد والأصول الجامعة والتقاسيم البديعة النافعة) وقد انتهى منه في ١٣٧٥/٣/٢٢هـ، وكتاب (الدرة البهية في حل المشكلة القدرية) وقد فرغ من تأليفه في ١٣٧٤/٢/٨هـ، وكتاب (نور البصائر والألباب) وقد انتهى من تأليفه في ١٣٧٤/٤/٢٧هـ.

أما كتابه التفسير ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ فقد بدأ به في ١٣٤٣/٣/٢٩هـ وعمره سبع وثلاثون سنة، وفرغ منه في غرة ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ، واختصره في كتابه (تيسير اللطيف المنان) في ١٣٦٨/١٠/٣هـ.

ومن لطائف سيرته في التعليم ـ تنويعه في الأساليب، وحرصه على شحذ أذهان الطلاب؛ فلم يكن يتقيد بأسلوب واحد، أو طريقة معتادة؛ فمن الطرق التي كان يأخذ بها ـ كما يقول حفيده الأستاذ مساعد ـ أنه يقسم الطلاب إلى فرق، ومجموعات عمل؛ فكل فرقة تبحث في مسألة علمية واحدة، ولكل مجموعة رئيس تُسمى به.

وكان رحمه الله يجمع إجاباتهم في بحث واحد.

يقول حفيده الأستاذ مساعد: «وقد اطلعت على نموذج من هذه البحوث العلمية بعنوان (تذكرة أولي الألباب في ذكر السؤال والجواب مرتب في الفقه على الأبواب من أجوبة أصحابنا الأنجاب).

وهو يحتوي على إجابات الطلاب، واستقصائهم لبعض المسائل الفقهية وأدلتها على ترتيب قراءتهم في مختصر المقنع.

وللشيخ الجَدُّ دور في إكمال البحث؛ بحيث ينظر في الرأي الموافق للصواب، فينتصر له، ويثبته؛ لكي يكون تذكرة لهم ولغيرهم.

وفي مقدمة هذا الكتاب يقول رحمه الله: إذا قيل: الجواب لـ: عيد وأصحابه فالمراد بهم: ١ـ عبدالله بن عبدالعزيز بن عيد التميمي ٢ـ إبراهيم بن صالح بن إبراهيم الجفال ٣ـ عبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم المصيريع ٤ـ عبدالله بن عثمان الحماد الخويطر ٥ـ محمد بن عثمان الحماد الخويطر ٦ـ محمد بن منصور الزامل.

وإذا قيل: الجواب لـ علي وأصحابه فالمراد بهم:

١ـ علي بن محمد بن عبدالله الخويطر ٢ـ صالح بن محمد بن حمد ابن عبدالعزيز البسام ٣ـ أحمد المرشد الزغيبي ٤ـ ناصر بن حمود العوهلي ٥ـ صالح ابن محمد بن ناصر العوهلي ٦ـ عبدالله بن محمد بن ناصر العوهلي ٧ـ عبدالعزيز ابن محمد بن ناصر العوهلي ٨ـ زامل بن إبراهيم الزامل ٩ـ علي بن حسن العلي البريكان ١٠ـ عبدالله بن حسن العلي البريكان».

ومن الأساليب التي كان ينتهجها في التدريس ـ كما يقول تلميذه العلامة الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ـ إيراد بعض المسائل بصورة مغلوطة؛ حيث كان يختبر طلابه بذلك؛ فينظر هل يراجعونه في ذلك، ويدركون الخطأ أوْ لا؟

وكان يرتاح كثيراً إذا ردوا عليه، أو صححوا له.

وكان له أسلوب جميل في حفز الطلاب، وتشجيعهم؛ فكان يعطي الجوائز الثمينة على حفظ المتون العلمية، والإجابة على الأسئلة التي يوردها.

وكان رحمه الله يبعث فيهم دوافع التعلم، والبحث في المعارف الجديدة.

ومن طرقه الرائعة في إلقاء الدروس ملائمة أسلوبه لجميع الطبقات ـ كما أشار إلى ذلك تلميذه الشيخ عبدالله بن بسام رحمه الله ـ فلا يرتفع على فهم المبتدئ، ولا يهبط عن مستوى إدراك المنتهي.

وكان رحمه الله يدرب طلابه على التعليم، والدعوة إلى الله؛ فكان يرسل بعض نجباء الطلاب لإمامة الناس في المساجد خصوصاً في صلاة التراويح والتهجد من رمضان، وكان بعضهم يقرأ على المصلين ما حفظوه وأفادوه من دروس الشيخ عبدالرحمن.

ومن أساليبه التربوية أنه كان يكلف من يرى فيه التميز، والكفاءة، والقدرة العلمية من طلابه بتدريس صغار الطلبة.

ومن هؤلاء الذين يقع عليهم اختياره للقيام بذلك: الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع، والشيخ علي الصالحي ـ رحمهما الله ـ.

ومن طلاب الشيخ علي الصالحي ـ الشيخ محمد بن عثيمين ـ والشيخ علي الزامل ـ رحمهم الله جميعاً ـ.

وكان ﷺ ينوع في الكتب والفنون التي يدرسها؛ فَيُدَرِّس العقيدة، والفقه، والتفسير، والحديث، والمصطلح، والنحو، والأدب وما جرى مجرى ذلك.

ومن الكتب التي كان يدرسها ـ كما أشار إلى ذلك تلميذه الشيخ عبدالله ابن بسام ـ: كتاب التوحيد، والواسطية، والطحاوية، ونونية ابن القيم، وتفسير الجلالين، وصحيح البخاري، ومنتقى الأخبار وعمدة الحديث، وبلوغ المرام، ونظم البيقونية، ونخبة الفِكَر، وزاد المستقنع، والروض المربع، ومنتهى الإرادات، وكتابه منهج السالكين، والإرشاد إلى معرفة الأحكام، ومتن الرحبية، ومتن الورقات، ومختصر التحرير، وقطر الندى في النحو، وألفية ابن مالك، وكتاب الحماسة لأبي تمام، ومعلقة زهير وغيرها من كتب السلف، ومؤلفات أئمة الدعوة، وكتبه، ورسائله الكثيرة.

ومن لطائف سيرته أنه كان حريصاً على تدوين الفوائد واللطائف التي يسمعها أو يقرؤها، أو تمر بخاطره.

ومن اطَّلع على أوراقه ورسائله المخطوطة يجد مصداق ذلك ـ كما يقول حفيده الأستاذ مساعد ـ.

وكان يقوم بتقييد ذلك في أوراق قد يصل حجمها إلى أصغر من كف اليد.

ومن اللطائف في ذلك أنه كان يحرص على استخدام الدفاتر ذات الحجم الكبير، والغلاف السميك؛ التي تُشترى له من عنيزة، أو من مكة المكرمة، أو تهدى له من بعض أبنائه.

ومن أساليبه في التأليف أنه كان لا يطيل في مقدمات كتبه، بل كان يختصرها بما يفي بالغرض، ويشير إلى المقصود.

وفي بعض كتبه لا تتجاوز المقدمة عشر أسطر، وربما خمسة أسطر، وقد يثني على بعض كتبه في مقدماتها؛ لشد ذهن القارىء، وتشويقه، وحفزه.

ومن شواهد ذلك ما قاله في مقدمة كتابه: (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن) حيث قال: «فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم جليلة القدر، عظيمة النفع تعين قارءها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء بها.

ومَخْبَرُها أجل من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من البحوث النافعة».

يقول الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله معلقاً على ذلك الكلام أثناء شرحه للكتاب المذكور: «وثناء شيخنا عبدالرحمن بن سعدي على كتابه ليس بغريب؛ لأن ثناء أهل العلم على مؤلفاتهم لا يقصدون به الفخر والتفاخر على الخلق إنما يقصدون شد الناس إلى قراءتها، والالتفاف حولها.

وله من سلف الأمة قدوة يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (لو أعلم أن أحداً تناله الإبل أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه).

وكذلك ثناء ابن مالك على ألفيته» اهـ.

ومن أساليب الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في التأليف والكتابة أنه يختم كتبه بقوله: «قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى الله في كل أحواله عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين»

أو يقول كلاماً نحو هذا، ثم يختم بذكر تاريخ الانتهاء من الكتاب.

ومن لطائف سيرته العلمية حصوله سنة ١٣٤٠هـ على إجازة في رواية الكتب الستة، ومسند الإمام أحمد، وموطأ الإمام مالك، ومشكاة المصابيح من شيخه أبي عبدالله علي بن ناصر أبو وادي الذي تلقاها من محدث الأقطار الهندية السيد محمد نذير حسين الحسيني الدهلوي سنة ١٢٩٩هـ.

وله إجازة من شيخه إبراهيم بن صالح بن إبراهيم بن عيسى النجدي الحنبلي سنة ١٣٤١هـ في رواية الكتب الستة وموطأ الإمام مالك وكتب الصحاح والمسانيد وكتب الفقه والأصول فقال فيها الشيخ ابراهيم رحمه الله: «هذا وإن ممن لاحظته العناية، وسبقت له منا الهدية، وألقت إليه المعارف والعلوم زمامها، وسلمت إليه البلاغة كمالها وتمامها ـ الطالب الراغب صاحب الفهم الثاقب الولد الصالح الذكي الفطن الورع التقي الطاهر القلب السليم المنتخب من أشرف قبيلة بني تميم الناشئ في طاعة الله المعيد المبدي عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي، أنار الله بوجوده حنادس المعارف، وأبدى بحقائق تحقيقه مكنونات اللطائف، وصرف المولى عنه صروف الردى، ولازال عَلَماً يستضاء بنوره ويهتدى، قد قرأ علي وسمع أطرافاً من الكتب الستة، وفي مسند الإمام أحمد، ومن الموطأ، وغير ذلك من كتب الحديث والفقه.

وبعد ذلك طلب مني؛ لإحسانه وحسن ظنه بي أن أجيزه بمروياتي، وأوشحه برواية مسموعاتي، وكنت ممن نظمه الأئمة الأعلام في سلك الإسناد، وأجازوه بما يجوز لهم وعنهم رواياته. . . .»

وكان ﷺ يستخدم في بادئ تأليفه للكتب القلم الذي يعبأ بالحبر من الدواة ويكتب بالحبر الأسود والأحمر.

وفي آخر عمره كان يكتب بالأقلام الحديثة ـ الباركر ـ.

ويمكن معرفة كتبه التي أعاد نسخها مرة أخرى بدقة الخط وجماله.

وأحياناً كان يكتب أو يعلق بالأقلام الملونة ـ الحمراء والزرقاء ـ وهي أقرب ما تكون بأقلام الرسم الخشبية ـ أشار إلى ذلك حفيده الأستاذ مساعد ـ .

ومن لطائف سيرته تنوع خطبه في الجمعة وملائمتها لحاجة الناس وواقعهم، وربطها بواقع المسلمين، وأحوالهم؛ فتارة تتسم خطبه بالوعظ والإرشاد، وتارة تشتمل على التعليم والتنبيه على بعض الأمور، وتارة يخطب عن المطر والسيول، فيذكر نعمة الله، ويحث على مساعدة المتضررين من جرائها، ويوصيهم بالصبر والاحتساب، وتارة يخطب عن الجراد الذي أهلك الحرث؛ فأضر بالمزارعين.

وفي جمعة خطب عن العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٣٧٥هـ من قبل فرنسا وإنجلترا وإسرائيل، وكشف عن مؤامرات أعداء الأمة.

كما كان يخطب بما يلائم المناسبة كرمضان، والحج ونحو ذلك.

وله خطبة عن الأمراض المعدية وحثٍّ الناس على أخذ التطعيمات اللازمة الواقية ـ بإذن الله ـ مع بيان أن ذلك لا ينافي القضاء والقدر، بل إن ذلك من فعل الأسباب التي هي تمام الإيمان بالقضاء والقدر.

وله خطبة في وفاة الملك عبدالعزيز رحمه الله يذكر فيها عظم المصاب في موته، ويعدد مناقبه، وأعماله الجليلة.

وقد ذيلها على غير عادته بوضع وقت إعدادها، باليوم والساعة، فقال:

«الساعة الثالثة صباحاً ١٣٧٣/٣/٣هـ يوم الثلاثاء».

ولعله استروح لوجود المناسبة في تكرار الرقم ثلاثة؛ فيكون في ذلك نوع طرافة.

وله خطبة سنة ١٣٧٦هـ وهي من أواخر خطبه ضمنها شكر الوزير ابن سليمان، وحث الناس على معرفة فضله والدعاء له، وشكره ومن أعانه على ما قام به من إيصال المياه إلى بيوت عنيزة، فتيسر لهم بذلك الحصولُ على الماء بلا كلفة.

ومن لطائف سيرته ـ كما يقول حفيده مساعد ـ أنه أظهر عناية بالنظم والشعر في بواكير عمره، وكان النظم أسهل عليه؛ فقد نظم الدليل في الفقه الحنبلي في أربعمائة بيت من بحر الرجز، وله منظومة في الفقه في سبعة وأربعين بيتاً نظمها سنة ١٣٣١هـ، ومنظومة أخرى في السير إلى الله ـ عز وجل ـ.

وله نظم في معنى حديث «**مثلي ومثل ما بعثت به كمثل غيث**...الحديث».

وله نظم في طلب العلم، وله أشعار متنوعة من رثاء، واشتياق لأصحابه وطلابه، كتلك القصيدة التي كتبها لأحد طلابه النجباء الذين يحبهم وهو الشيخ محمد بن سليمان البسام المدرس بالحرم المكي الشريف؛ وذلك لما هم بالسفر إلى مكة لأداء الحج عام ١٣٦٣هـ؛ فناوله الشيخ عبدالرحمن رسالة مختومة، وقال له: لا تفتحها إلا بعد أن تسير مسافة كذا وكذا.

يقول الشيخ محمد البسام: فلما سرنا المسافة التي حددها الشيخ فتحت الرسالة، وإذا فيها أبيات من الشعر تقطر وَجْداً، ومحبة، وأسىً على فراق التلميذ، ومما جاء فيها:

أَذَكرتَ ربعاً من خليطك أقفرا أرسلت دمعاً ذا رذاذ قطرا

أم هاجك الغادون عنه عشيةً لما مشوا وتيمموا أم القرى

إلى آخر ما قال، حتى إن الشيخ البسام تأثر لذلك كثيراً، وقال: وددت أني لم أسافر للحج إلا وأنا معه؛ لما لمسته من محبته وشفقته.

ومما يذكر في سيرة الشيخ السعدي رحمه الله أنه كان دائم التواصل مع العلماء والمشايخ والقضاة، وذلك عبر المكاتبات التي كانت وسيلة الاتصال في ذلك الوقت؛ فكانت المكاتبات، والأسئلة تترى عليه من مكة، والرياض، والدمام، والجبيل، وجيزان، ونحوها.

كما كانت تأتيه من مصر، والشام، والكويت، والبحرين.

وإذا أتته الرسائل بادر إلى الرد عليها، والإجابة عن الأسئلة الواردة فيها، وكان يضمنها الأشواق، والدعوات، والسؤال عن الأحوال، والأولاد، وسائر الأصحاب.

وقد خرج شيء من ذلك في كتب بعد وفاة الشيخ ،ككتاب (الأجوبة النافعة عن الأسئلة الواقعة).

وهي مكاتبات جرت بينه وبين تلميذه الشيخ عبدالله بن عبد العزيز العقيل ـحفظه اللهـ يوم أن كان قاضياً في منطقة جازان وفرسان جنوب المملكة.

وقد قام على إخراجه، والعناية به الشيخ هيثم الحداد ـ حفظه الله ـ.

وكذلك كتاب (الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية).

وهي مجموعة رسائل جرت بينه وبين بعض علماء الكويت في ذلك الوقت كالشيخ عبدالمحسن الدعيج، والشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري، والشيخ محمد بن سليمان الجراح ـ رحمهم الله ـ.

وقد اعتنى بها وحققها د. وليد المنيس.

وكذلك كتاب (الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية).

وهي مجموعة رسائله التي جرت بينه وبين الشيخ عبدالرحمن بن محمد المقوشي، والشيخ ناصر بن باتل العبري، والشيخ صالح بن مرشد، والشيخ سليمان بن رويشد ،والشيخ محمد بن سليمان البصيري ،والشيخ سالم بن علي المحفوظ ـ رحمهم الله ـ .

أما الأصدقاء والأقرباء فهم لا ينقطعون عن مراسلته، وطلب الفتوى منه.

وقد تجد في رسائل بعضهم طلب خدمة في أي أمر من الأمور الدنيوية، وبعضهم يُوْدِعُه أسراره الخاصة كالوصايا والأوقاف، وغيرها.

وكان لا يتأخر عن خدمتهم، وقضاء حوائجهم.

وللتجار نصيب من هذه المكاتبات خصوصاً من كانوا من أهل عنيزة سواء كانوا في مكة، أو الرياض، أو الدمام، أو الجبيل، أو البحرين، أو الهند؛ فهم يثقون بالشيخ، فيرسلون إليه صدقاتهم، وزكواتهم؛ ليقوم بنفسه بتوزيعها حسب ما يراه.

ومما تجدر الإشارة إليه في سيرة الشيخ رحمه الله أنه كان محل ثقة العلماء والمشايخ خاصة مفتي الديار السعودية آنذاك سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله فقد عَمَّده الشيخ محمد باختيار مدرسي المعهد العلمي في عنيزة، وكان يستأنس برأيه، كما أنه أقره على المنهج الذي وضعه، وطلب منه الإشراف على المعهد مقابل مبلغ مالي لكن الشيخ عبدالرحمن راجعه في ذلك، وقال: أشرف عليه دون مقابل.

ومن لطائف سيرته وفاؤه المنقطع النظير، وقد مر شيء من هذا القبيل.

ومن مظاهر ذلك أنه لا ينسى فضل ذوي الفضل، بل يحفظ لهم فضلهم، وسبقهم بالمعروف، بل كان ذلك يصل إلى أحفادهم؛ فقد ذكر الشيخ عبدالله ابن عبدالرحمن البسام رحمه الله في كتابه علماء نجد أنه لما تصدع المسجد الجامع الذي يؤمه الشيخ من جهة مقدمته سنة ١٣٦١هـ جعل محمد بن علي بن منصور الزامل مشرفاً على البناء خلفاً لجده منصور الذي وسَّع المقدمة سنة ١٢٤٦هـ، ولما تصدعت

مؤخرة المسجد سنة ١٣٧٢هـ أسند الإشراف عليها إلى سليمان بن صالح ابن حمد البسام خلفاً لجده حمد الذي وسع المسجد من جهة الخلف سنة ١٢٤٦هـ.

ومن لطائف سيرته دقته في عرض المسائل، وأنه لم يكن يستنكر أو يستوحش من الاستفادة من المخترعات والتقنيات الحديثة كالبرقية، ومكبرات الصوت، وتبليغ الناس بدخول الشهر بالأصوات، أو الرمي، أو البرقية أو نحو ذلك.

بل إن له كلاماً في مؤلفاته عن المخترعات الحديثة، وبيان أنها من نعم الله، وأنها دليل على قدرته ـ عز وجل ـ.

ويذكر حفيده الأستاذ مساعد أن الشيخ عبدالله العمري رحمه الله بعث إليه ـ أي إلى مساعد ـ برسالة عام ١٤٢٥هـ فَحْواها أن الشيخ العمري تذاكر مع الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في بعض مجالسه سيرة شيخهم الشيخ عبدالرحمن السعدي، فقال الشيخ محمد: «لوأتيح لشيخنا عبدالرحمن ما أتيح لكبار العلماء في هذا الوقت من وسائل الاتصال والإعلام الداخلي والعالمي لكان له شأن آخر، ولفاقهم في حسن الذكر ومكارم الأخلاق».

ومن لطائف سيرته وحلمه، وتغاضيه وعفوه، والتماسه العذر للناس ـ ما ذكره الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في بعض دروسه؛ حيث ذكر بأنه لما طبع كتاب (القواعد الحسان) للشيخ عبدالرحمن طبعته الأولى تحت إشراف الشيخ محمد حامد الفقي المصري سنة١٣٦٦هـ، جاءت تلك النسخة تحمل أغلاطاً من تصحيف، ونقص، وتقديم، وتأخير، وسقط، وتصرف في العبارات؛ فظهرت تلك النسخة معيبة كثيرة الخطأ.

وبعد وصولها إلى عنيزة، وتوزيعها على طلاب العلم، وقراءتها على الشيخ تكلم بعض كبار الطلاب مع الشيخ عبدالرحمن بذلك وهم في مجلس الدرس، وطلبوا من الشيخ أن يتكلم مع الناشر وأن يقيم عليه دعوى؛ خاصةً وأن تكاليف الكتاب مدفوعة الحساب مسبقاً؛ فاستمع الشيخ إليهم لكنه بعد مراجعته للكتاب قال ملتمساً العذر للناشر: ما دامت الزيادات أو السقط الحاصل ليس فيه مضادة للمعنى، أو إفساد له ـ فاتركوه.

وهكذا تسامح مع الناشر، ولم يطالبه بشيء ـ ذكر ذلك حفيده مساعد ـ.

ولقد يسر الله لهذا الكتاب من قام على إصلاحه، والعناية به، حتى ظهر بحلة قشيبة تسر الناظرين، ألا وهو الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت ـحفظه الله ـ.

ومن آخر أخباره في التأليف ـ كما يقول حفيده الأستاذ مساعد ـ شروعه في تأليف بعض الكتب، لكن الأجل وافاه، وحال بينه وبين إكمالها.

ومن تلك الكتب:

ـ شرح كتاب الإيمان (باب معرفة الله والإيمان به) للشيخ المجدد الإمام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله.

ـ وشرح للقواعد الشرعية الأصولية من كتابه (الرياض الناضرة)، وذلك عندما طلب منه أحد المحبين التعليق عليها وشرحها.

ـ وشرح أحاديث كتاب (بلوغ المرام).

كما أن للشيخ رحمه الله بعض الكتب المخطوطة التي تحتاج إلى عناية حتى تخرج.

ومن بديع ما يذكر في سيرته رحمه الله ما ذكره حفيده مساعد في خاتمة المذكرة التي جمعها عن جده حيث قال: «في شهر رجب من عام ١٤٢٥هـ دعاني الخال محمد ابن الشيخ عبدالرحمن السعدي إلى دكانه في الدمام، فلما سلمت عليه أخرج من درج مكتبه دفتراً أسود اللون[1] صغيراً بحجم الكف سميك الغلاف، وقال لي: هذا الدفيتر يا مساعد كان عند المرحوم مثل مفكرة الجيب يسجل فيه بعض المعلومات، وجَدْتُه عندي؛ فناولني إياه وقال: خُذْه هدية واطلع عليه؛ فشكرته على ذلك، وغمرتني الفرحة وازدادت لما قلَّبت صفحاته، فوجدت فيه ما لم أجده في مؤلفاته ورسائله الشخصية التي بحوزتي، فصورته صورة مكبرة؛ حتى أتمكن من قراءته، فكنت أطالعها من وقت لآخر، وفي كل مرة أقول: رحم الله الجد كان شعاره محاربة النسيان بالتسجيل والتدوين والكتابة.

وعندما تُقلِّب صفحات هذا الدفتر الصغير تجد التنوع في المعلومة، والدقة فيها، وسوف أذكر بعض ما فيها دون ترتيب:

١ـ معلومات وفوائد شرعية منثورة وإجابة على بعض الأسئلة، ومنها سؤال عن محاباة المريض في مرض الموت، وسؤال عن إذا مات المستأجر هل يلزم ورثته تعجيل الأجرة وغيرها من الأسئلة.

٢ـ كيف يستخدم ظل الشاخص في معرفة أوقات الصلوات الخمس.

٣ـ مصاريف وحسابات مشتريات البيت الشهرية والسنوية.

---

١ ـ رأيت هذا الدفتر لما زرت الأستاذ مساعد، ووجدت فيه أشياء عجيبة من الدقة، والتدوين، وما جرى مجرى ذلك، بل إن ذلك الدفتر يستحق أن يخرج مفرداً في مؤلف.

٤ـ الأماكن التي كان يحفظ فيها رحمه الله نقوده ووصاياه.

٥ـ المداينات التي يطلب منه أقرباؤه من الرجال والنساء تسجيلها وإثباتها.

٦ـ حصر الزكوات التي تصل إليه من التجار أو أصحاب المزارع أو الطلاب الموسرين؛ ليقوم بتفريقها بنفسه، وبمعرفته.

٧ـ تواريخ بعض الأحداث المهمة كتاريخ الانتهاء من بناء المكتبة سنة ١٣٥٩هـ وترتيب الشيخ محمد العبدالعزيز المطوع مدرساً مبتدئ فيها لتعليم العقيدة والفقه في التاسع من شوال عام ١٣٥٩هـ.

وكان يسجل تاريخ ميلاد بعض معارفه.

٨ـ تسجيل الأوقاف التي يوقفها أهل الخير على أعمال البر.

٩ـ توزيع بعض المواريث الخاصة ببعض الأسر.

١٠ـ الكتب التي استعارها من أبناء الرواف محمد وسليمان سنة ١٣٤٤هـ.

١١ـ المبالغ المالية التي تزيد عن حاجة المسجد والمكتبة والتي كان يعطيها بعض التجار الذين يثق بهم لشراء البسط أو أوعية الكيروسين لسرج المسجد، أو التي يطلب منهم المضاربة بها؛ لتعود أرباحها إعانة لطلاب العلم والفقراء من أهل عنيزه.

وكان رحمه الله يوصي التجار على حفظها، وجعلها في عقار ونحوه، وهو الناظر عليها في حياته، ولم يغفل عن أخذ توقيعهم على ذلك.

١٢ـ ما يستعيره من كتب وأدوات.

١٣ـ سجل في هذا الدفتر بعض أملاك أجداده ـ رحمهم الله ـ.

١٤ـ سجل في هذا الدفتر الأماكن التي وضع فيها وصيته ووصية الجد سليمان والوثائق المهمة.

١٥ـ دون فيه اسمه كاملاً في وسط الدفتر ودون مناسبة فكتب «عبدالرحمن ابن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد بن محمد بن حمد السعدي» وهذه هي المرة الأولى التي وُجد فيها اسمه كاملاً مدوناً.

ودون فيه أسماء بعض قرابته مثل حسين بن ناصر السعدي، وبنته نوره، وأبناء أخيه حمد القاضي، وأسماء أهل حائل مثل الشاعر شايع بن رباح ابن سعدي، ومطلق ابن سالم، وحمود بن عثمان السعدي.

١٦ـ سجل في هذا الدفتر أسماء بعض غرف البيت مثل «القهوة، روشن حصة، روشن برجس، وهكذا..».

١٧ـ راتب ومعاش من يكلفهم بالتدريس مثل راتب الشيخ محمد العبدالعزيز المطوع والذي كان معاشه ذلك الوقت ١٥ ريالاً.

١٨ـ طريقة علاج البثرة.

١٩ـ تجديد وكالة للشيخ من أحد المغتربين عن مدينة عنيزة؛ لتزويج ابنة له.

وفي هذا الدفتر بعض الأمور الأسرية الخاصة.

هذه لمع ولطائف من سيرة الشيخ، وسيأتي في الفقرة الآتية مزيد بيان، وشواهد لما مضى، وذلك من خلال ذكر بعض المواقف الخاصة بالشيخ رحمه الله.

«رابعاً: مواقف من حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي»

للشيخ عبدالرحمن رحمه الله مواقف كثيرة يتروَّاها الناس، وتتناقلها الأجيال التي عاصرته حتى يومنا الحاضر.

ولا يزال الناس يسمعون بين الفينة والأخرى أطرافاً من سيرة الشيخ رحمه الله.

ولعل من آخر ما دُوِّن في هذا الصدد تلك الأوراق المخطوطة التي أملاها ابنه محمد، وأعدها حفيده مساعد، وزاد عليه ما يعلمه من سيرة جده.[1]

وقد مضى في الفقرة الماضية ذكر لها، وفيما يلي من صفحاتٍ ذكرٌ لبعض تلك المواقف مع شيء من التعليق اليسير عليها، فإلى تلك المواقف التي تُبِيْن عن بعض المعالم العملية لسيرة الشيخ رحمه الله.

١ـ هذا موقف يبين أن الشيخ رحمه الله كان يمازح أصحابه ـ كما مر ـ.

يقول ابنه الأستاذ محمد: «كان للوالد الشيخ صديق عزيز اسمه: عبدالعزيز الدامغ، ويلقَّب بـ: ضعيِّف الله.

ومعنى هذا اللقب عند أهل نجد: المسكين، الضعيف، ولا يلزم أن يكون اللقب مطابقاً لحال من لُقِّب به.

الحاصل أنه في يوم من الأيام كان الشيخ يمشي مع صاحبه عبدالعزيز الدامغ في جماعة من الناس، وكانوا يتحدثون عن الأعمار كما هي عادة كثير من الناس، وكان عُمُرُ الدامغ المذكور آنذاك إحدى وستين سنة، فقال له الشيخ

---

١ ـ المواقف الآتية مأخوذة من المذكرة المخطوطة، ومما سمعته من عبدالرحمن، وعبدالعزيز ابني حمد ابن ناصر السعدي.

عبدالرحمن: (يا أخ عبدالعزيز يكفيك عمر النبي ﷺ).

يعني ثلاثاً وستين سنة، ومعنى ذلك أنه بقي له سنتان فحسب.

فقال عبدالعزيز الدامغ: (حَسَناً، ولكن نبتدئ يا شيخ من الآن).

ومعنى ذلك أن يكون عمره أربعاً وعشرين ومائة سنة، فضحك الشيخ، وأعجب بسرعة بديهة صاحبه».

٢ـ وهذا موقف يدل على ملاطفة الشيخ للناس:

يقول ابنه محمد: «كان الشيخ كثيراً ما يوافق على الدعوات التي توجه إليه؛ كي يتناول القهوة، وفي أواخر شهر ذي الحجة من إحدى السنوات دعاه أحد أصدقائه، ولكن الشيخ اعتذر مازحاً، وقال لمن دعاه: أنا عندي مواعيد كثيرة؛ فألح عليه صاحبه، وبدا منه الغضب لرد الشيخ؛ فقال له الشيخ: إذاً يكون موعدك أول السنة القادمة، فغضب صاحبه وقال: أنت لا تريد دخول منزلي.

فقال له الشيخ: يا أخي يوم الثلاثاء القادم هو بداية السنة الجديدة أي بعد يومين، أما علمت أننا في آخر هذه السنة.

فطابت حينئذٍ نفس صاحبه، وأدرك أن الشيخ يمازحه».

٣ـ وهذا موقف يدل على حسن أخلاق الشيخ في السفر:

يقول ابنه محمد: «كان الشيخ حاجاً على الإبل، ومعه جماعة منهم إبراهيم ابن محمد البسام، وسليمان بن إبراهيم البسام.

وكان سليمان المذكور راكباً على الجمل الذي عليه قِرَبُ الماء.

ولما وصلوا مكة، وأدوا بعض المناسك، وحان وقت وصولهم إلى عرفات

تفرقوا، وأضاع بعضهم بعضاً، فصار الجماعة ينتظرون سليمان البسام؛ لأن الماء معه، وهم يريدون الوضوء، والشرب، وعمل الشاي والقهوة، وليس عندهم ماء.

ولم يلتقوا إلا في منى، وكان آخرهم وصولاً سليمان؛ فلما وصل قام إبراهيم البسام يعاتبه مازحاً، ويقول له: أين أنت، لماذا تأخرت؟ مُؤكَّدٌ أنك ضائع؟

ولما علم سليمان أن الشيخ عبدالرحمن كان من ضمن الضائعين التفت إلى إبراهيم وقال: لماذا لا يقع اللوم إلا عليَّ؟ هذا كبيرهم الذي علمهم السحر -ويعني به الشيخ- ضاع قَبْلَي؛ فلماذا لا يعاتب؟

فقال له إبراهيم: نحن نريد الماء الذي معك؛ فضحك الشيخ لمقولة سليمان، فصار يرددها ويقول: هداك الله يا سليمان شبهتنا بسحرة فرعون، وقال الشيخ: باللهجة الدارجة: هذه تبي حق[1]».

٤- وهذا موقف يبين كيفية توزيعه للصدقات والزكوات:

يقول ابنه محمد: «في شهر رمضان يأتي للوالد زكوات، وصدقات من التجار والمحسنين؛ كي يفرقها على مستحقيها.

وأذكر وأنا صغير أنه يعطيني صرة فيها أموال، ويقول لي: أعط فلاناً وغيره من المحتاجين، وقل له: هذه أموال لك عند والدي؛ فكنتُ أظنه ديناً لهذا الرجل عند والدي.

---

١ - هذه كلمة دارجة معناها: نريد أن تقدم لنا شيئاً إما وليمة أو غيرها؛ لأجل أن ترضينا بسبب خطئك علينا.

ولما كبِرتُ علمتُ أنها تورية من الوالد؛ حيث كان أولئك المحتاجون متعففين، ومن أسر كبيرة؛ فكان رحمه الله بهذه الطريقة يستر عليهم، ويحفظ عليهم كرامتهم وعزتهم، وماء وجوههم، ويبعد عنهم الحرج.

أما عامة الناس فكان يعطيهم بنفسه، أو يعطي من يثق به كي يوصلها إليهم».

٥ـ وهذا موقف يدل على حكمته في الدعوة والإنكار:

يقول ابنه محمد: «في ذات يوم اشترى والدي حطباً، وكان من عادة الناس في عنيزة أَنْ إذا اشترى الواحد منهم حطباً طلب من البائع أن يوصل الحطب إلى بيت المشتري، فيضع له أهل البيت ماءاً وتمراً.

وإذا أراد الخروج طرق باب البيت بقوة؛ يعلمهم بخروجه.

وفي يوم من الأيام خرج البائع بعد أن أنزل الحطب، فأراد الوالد الشيخ أن يغلق الباب؛ فوجد في فناء المنزل علبة، فعلم أنها علبة دخان قد سقطت من البائع، فقام وفتح الباب ونادى البائعَ، وقال له: هذه لك ـ يريد علبة الدخان ـ؟ فقال البائع: نعم، ولكن هل تعلم ما بها يا شيخ؟

قال الوالد: نعم بها دخان؟

قال البائع: ومع ذلك سوف تعطيني إياها؟

قال الوالد: نعم لأنك إذا لم تجدها سوف تشتري بقيمة الحطب علبة دخان أخرى، وربما جاع عيالك بسبب ذلك؛ فخذه والله هو الهادي.

فما كان من البائع إلا أن أخذ علبة الدخان، وألقاها في الأرض، وقال: اللهم إني تبت، ولن أعود إلى الدخان مرة أخرى».

فانظر إلى هذا اللطف، وتلك المعاملة والنظرة، كيف أَثَّر في نفس البائع، وحمله على ترك الدخان؛ فالشيخ رحمه الله لم يكن لِيُقِرَّه على شرب الدخان، كيف وقد ألف رسالة من أبدع ما ألف في حكم شرب الدخان وتحريمه؟

وما كان ـأيضاًـ ليدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الذي أبدى فيه وأعاد في كثير من مؤلفاته.

ولكنه رحمه الله رأى أن المصلحة والحكمة تقتضيان بأن يتعامل مع ذلك الموقف بتلك الصورة التي أدت الغرض، وكان سبباً في إقلاع ذلك الرجل عن التدخين.

٦ـ وهذا موقف يبين حب الشيخ للناس، وحرصه على نفعهم:

يقول ابنه محمد: «في يوم من الأيام كان الوالد رحمه الله يتناول طعام العشاء مع أخي أحمد رحمه الله فَطَرَق البابَ طارقٌ من غير أهل البلد يريد الوالدَ الشيخَ، ففتح له الأخ أحمد، وقال: الشيخ يكون موجوداً بعد قليل، وكان قصد أخي أحمد أن يكمل الوالد طعامه؛ فانصرف الطارق، ورجع الأخ أحمد، وأكمل عشاءه؛ فسأله الوالد: من كان عند الباب؟

فقال الأخ: رجل يسأل عنك، فَصَرَفْتُه، وقلت له: ارجع بعد قليل.

فتكدر الوالد، وعاتب أحمد وقال له: يا وليدي: إن قيامي، وإجابتي السائل أحب إليَّ من جلستي على العشاء، ثم قام رحمه الله دون أن يكمل عشاءه، وقال لأخي أحمد: لا تعد لمثل هذا ـ أصلحك الله ـ».

٧ـ وهذا موقف يبين حلم الشيخ، وسعة صدره، ورحمته بالصغار، وبعده عن التعنيف عليهم:

يقول ابنه محمد: «كانت الوالدة ـ رحمها الله ـ قادمة من الحج، وفي ذلك اليوم كان عند الوالد في المنزل ابنٌ صغيرٌ لأخي أحمد عمره ثلاث سنوات ، وإذا

جاء الليل أرسلوه إلى أمه.

وفي الليلة الأولى لوصول الوالدة من الحج لعب الولد الصغير بساعة الوالد التي تنبهه للقيام في آخر الليل؛ فنام الوالد والساعة مقفلة، فلم يقم تلك الليلة، ولم يصلِّ الفجر بالجماعة.

ولما صلى عصر ذلك اليوم بالجماعة ـ وكانوا كثيرين في ذلك الوقت؛ لقرب المسجد من السوق ـ شرع عبدالعزيز بن محمد البسام ـ أحد طلبة الوالد ـ يقرأ كالعادة، والوالد الشيخ يشرح.

وفي تلك الأثناء قام أحد الصغار وهو عبدالرحمن بن إبراهيم بن عبدالمحسن البسام وكان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة، فقال بصوت مرتفع يخاطب الشيخ وهو يشرح، والناس يستمعون له: هَنَّاك الأول[1] يا أبا عبدالله ـ يعني الشيخ عبدالرحمن ـ قَرَّت عينك بأم عبدالله ـ يعني زوجة الشيخ ـ الحمد لله على السلامة، الفجر ما صليتَ بالجماعة الظاهر أن أم عبدالله نايمة على رأسك، لا تَعُدْ لذلك مرة أخرى.

فما كان من الشيخ إلا أن ضحك، ولم يستطع إكمال الدرس من الضحك، وهكذا الجماعة؛ من طرافة ذلك الموقف، ثم قام الشيخ الوالد عبدالرحمن من مكانه إلى الصبي عبدالرحمن البسام، وأعطاه ريالين عربي فضة؛ لأنه سُرَّ من كلامه، وكان سبباً في سرور المصلين؛ فصارت تلك الحادثة مدار حديث المجالس في تلك الأيام».

---

١ ـ يعني أنا أول من يهنئك بوصول زوجتك أم عبدالله.

فانظر إلى هذا الحلم، وتلك الحكمة، وانظر إلى حسن التصرف؛ حيث جعل من ذلك الموقف سبباً للسرور، والبسط؛ فماذا لو عنف ذلك الصبي؟ وما أثر ذلك عليه، وعلى والديه، وعلى جماعة المسجد؟

ولكنه الخلق، والأخذ بالرفق، الذي ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

٨ـ وهذا موقف يدل على حكمة الشيخ، وتلطفه في النصح والإنكار:

يقول ابنه محمد: «كان هناك رجل عرف عنه التهاون بصلاة الجماعة، ويحصل منه ظلم لنفسه وللآخرين؛ فعلم الشيخ بحال ذلك الشخص؛ فكان يتحرى الفرصة لمناصحته.

وفي يوم من الأيام تقابل معه الشيخ في الشارع دون موعد، فسلم عليه الشيخ، ورحب به، ولاطفه، وقال له: إما أن تعزمني أو أعزمك[1]؛ فقال الرجل: أنا أعزمك يا شيخ، فقال الوالد: دعنا نرى أَيُّنا بيته أقرب من الآخر؛ فتكون القهوة عنده، فقال الرجل: سَمْ ـ أي نعم ـ فلما نظر وجد أن بيت الوالد أقرب.

فقال الوالد: بيتنا أقرب من بيتكم، تفضَّل معنا.

ولما دخل منزل الوالد قام الوالد بإشعال النار، وإصلاح القهوة والشاي، ثم شرع في الأحاديث الودية، ثم قال له الوالد: كثير من الناس يتكلمون،

---

١ ـ من معاني العزيمة عند أهل نجد: الدعوة إلى المنزل إما لوليمة طعام، أو لتناول قهوة أو شاي، أو نحو ذلك.

ويقولون: إنك لا تحافظ على صلاة الجماعة، وإنه يحصل منك تعديات، وأنا لم أُصدِّق هذا الكلام؛ لأنك من أسرة كريمة معروفة.

ولكن يا ولدي تعرف الناس؛ فهم يتعرضون لكل أحد، ولو كان بريئاً.

ولو أخطأ غيره لربما رموه بذلك الخطأ؛ فالأولى بك يا ولدي أن تترفع عن كل ما يقال في حقك، وأن تتجنب كل سبب يفضي بك إلى اللوم.

فما كان من ذلك الرجل إلا أن اقتنع بكلام الشيخ، وتراجع عما كان يقوم به من ظلم وتعدٍّ، وصار يحافظ على الصلاة خصوصاً صلاة الفجر، ولم يعد يتعرض للناس بعد ذلك، وكان يقول: لقد أثر كلام الشيخ فيَّ ولله الحمد».

٩ـ وهذا موقف يتجلى به حكمة الشيخ في تغيير بعض العادات الشائعة؛ حيث كان من عادة الناس في نجد في وقت الشيخ أن الرجل إذا تزوج مكث في منزل والده؛ لأنهم يرون أن خروجه من المنزل عقوق، وأنه أمر لا يليق، لكن الشيخ رحمه الله سعى إلى تغيير ذلك المفهوم عملياً، وذلك من خلال الموقف الآتي.

يقول محمد بن الشيخ عبدالرحمن السعدي: «تزوج الأخ عبدالله الابن الأكبر للشيخ عبدالرحمن في عنيزة، وكان من عادة أهل نجد أن من تزوج لم يخرج من بيت والده، وكنا ـ نحن أبناء الشيخ ـ نسكن والوالد في بيت واحد.

ولما رزق الأخ عبدالله بأولاد طلب منه الوالد أن يسكن في بيت مستقل هو وأولاده.

وكان الوالد يهدف من وراء ذلك إلى أن يأخذ أخي عبدالله راحته أكثر.

لكن الأخ عبدالله عارض هذا الاقتراح في أول الأمر، وقال: أنا يا والدي

مرتاح في السكن معكم، وأخشى أن يتحدث الناس عني، ويظنوا ذلك عقوقاً مني، أو يحسبوا أن بيني وبينك سوء تفاهم، وهذا ما لا أرضاه.

فقال له الوالد: لا تهتم، دع هذا الأمر لي؛ فإذا كان هناك مناسبة أبلغتُ الناس بأن على الوالد إذا تزوج أولاده وهو مقتدر فعليه أن يأذن لهم في السكن في بيوت مستقلة.

وهكذا خرج الأخ عبدالله في بيت مستقل، ولم يتكلم الناس، بل صارت هذه الحادثة محل القدوة عند الناس، وأدركوا أن خروج الولد إذا تزوج عن منزل والده لا يعني شيئاً، وعلموا أن ذلك أفضل للمتزوج، بل ربما يكون أفضل للوالد ـ أيضاً ـ».

١٠ـ وهذا موقف يدل على رَوِيَّة الشيخ، وتركِهِ الاستعجالَ في الإنكار للأشياء الجديدة؛ حتى يتبين حقيقتها:

يقول ابنه محمد: «في يوم من الأيام كانت عندي دائرة قهوة ـ والدائرة تعني دوران الاستضافة على الشاي والقهوة بين مجموعة من الأصدقاء، بحيث تكون كل يوم أو كل أسبوع عند أحدهم في وقت معين إما في الضحى أو المغرب أو غير ذلك ـ.

يقول: وكان الوالد يفرح إذا جاء أحد عندي، وفي يوم من الأيام دخل علينا الوالد، وجلس يشرب القهوة، وكان من ضمن الحاضرين سليمان بن صالح العليان رحمه الله فسأل سليمان الوالد، وقال له: يا شيخ! الأمريكان يزعمون أنهم سيصعدون إلى القمر؟

فقال له الشيخ: ما المانع من ذلك، بإمكانهم أن يصعدوا بواسطة آلة ترفعهم أو أي سلطان آخر، ثم قرأ رَحِمَهُ اللَّهُ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنس إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ الرحمن: ٣٣.

وكان من ضمن الحاضرين عندي في ذلك اليوم عشرة أشخاص؛ فسمعوا كلام الوالد، وتعجبوا منه، بل إن بعضهم لم يستوعب السؤال والجواب؛ لأن هذا الكلام كان عام ١٣٦٠هـ تقريباً.

ولما كنت عام ١٤١٨هـ في سويسرا ذهبت إلى فندق برزدنت للسلام على الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، وكان ساكناً في الفندق، وله جلسة قهوة وشاي بعد صلاة العصر، وكان من محبي الوالد، وكان يقول: لا أذهب إلى عنيزة إلا وأزور الشيخ ابن سعدي في بيته للسلام عليه.

ولما استقر بنا المجلس عند الشيخ التويجري في صالة الفندق، وكان الحضور خمسة عشر شخصاً، ومن بينهم أمريكي سمعت أنه كان عضواً بالكونجرس الأمريكي ـ تحدث الشيخ عبدالعزيز، وقال للأمريكي بواسطة المترجمين وهو يشير إليَّ: والد هذا الشخص عرف أنكم أيها الأمريكان سوف تصعدون إلى القمر منذ ستين عاماً.

فتعجب الأمريكي من ذلك أشد العجب، ثم قال الأمريكي: هذا ـ يعني الوالد ـ يرى إمكانية وصولنا إلى القمر قبل ستين عاماً، ويوجد عندنا أناس كثيرون يكذبون ذلك، وينكرونه ؟!

ثم التفت الأمريكي إلى الشيخ التويجري، وقال له: الشيخ ابن سعدي من أهل المجمعة؟ لأنه يعرف أن الشيخ عبدالعزيز التويجري من أهل المجمعة.

فرد عليه الشيخ عبدالعزيز قائلاً: لا، بل هو من أهل عنيزة».

١١ـ وهذا الموقف يدور حول تعيين الشيخ عبدالرحمن للقضاء، وتكدره ورفضه لذلك، وفرحه لما علم أنه لن يعيَّن قاضياً:

يقول ابنه محمد ـ حفظه الله ـ: «في عام ١٣٦٦هـ تقريباً مرت بالوالد الشيخ أزمة قوية أثرت على نفسيته وصحته.

وسبب ذلك خبرٌ بلغ الوالدَ مفاده أنه سيعين قاضياً في عنيزة.

وهذا الأمر مما لا يرغبه الوالد؛ فسافر إلى مكة المكرمة، وحرص على كتمان ذلك عن الناس.

وقد صحبه في تلك الرحلة الحرابي صاحب السيارة، وصالح العبدلي، وعبدالرحمن بن عبدالعزيز البسام.

وكنت مع الوالد في مكة في بيت أخي عبدالله رحمه الله.

وكان عندنا في البيت أبو عبود صالح العباد، ومحمد بن منصور الزامل.

وفي تلك الأيام اشتدت الأمور على الوالد؛ خوفاً من إلزامه بالقضاء، وكان يقول: أهل عنيزة أصدقائي، فإذا أصبحت قاضياً صار نصفهم أصدقائي، والنصف الباقي أعدائي، وهذا لا يمكن أن يحدث ـ بإذن الله ـ وكأنه يستحضر بيت ابن الوردي الذي يقول فيه:

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأعمال هذا إن عدل

وكان الوالد لا يرغب أبداً في القضاء؛ تورعاً؛ لأنه يرى أن القضاء صعب، وأنه ربما عاقه عما هو بصدده من التعليم والإصلاح، والتأليف.

واشتد عليه الأمر لما بلغه أن الملك عبدالعزيز رحمه الله في عنيزة تلك الأيام، وأنه قال للأمير: «لقد رأينا تعيين الشيخ ابن سعدي قاضياً لكم يا أهل عنيزة».

ولقد تكدر الوالد لذلك أشد التكدير؛ حتى كان يُغمى عليه في بعض الأوقات، وكان لا يشتهي الطعام إذا مرت بخاطره تلك الأخبار.

كل ذلك مع أن الوالد لم يُبَلَّغْ رسمياً، بل هي مجرد أخبار.

وكان لدى الوالد أمل، وثقة بلطف الله، وأنه ـ عز وجل ـ سيصرف عنه ذلك الخطب.

وكان رحمه الله يذهب في آخر الليل إلى المسجد الحرام هو وأبو عبود، ومحمد ابن منصور الزامل، والأخ عبدالله، فيصلون، ويطوفون حتى صلاة الفجر، وبعدها يجلسون في الحرم إلى أن ترتفع الشمس.

أما أنا فقد كنت شاباً صغيراً أقوم وأصلي في المسجد القريب عند بيت أخي عبدالله، وبعد الصلاة أرجع وأنام؛ حتى يأتي الوالد ومن معه؛ فأقوم وأصحبهم إلى من استضافهم على الإفطار.

وفي يوم من تلك الأيام نمت كالعادة بعد صلاة الفجر، فرأيت فيما يرى النائم رؤيا لم تغب عن بالي إلى يومنا هذا؛ حيث رأيت حيَّةً ضخمة كبيرة طويلة، رأيتها خارجة من جبل، ثم تعلقت، ولم تستطع التحرك من مكانها، وصار الناس ينظرون إليها من بعيد، وأخذوا يتكلمون في شأنها، وكانوا في شأنها على

ثلاثة آراء: أناس يقولون: دعونا نشق الجبل، ونخرج الحية، وأناس قالوا: بل نرمي عليها حجارة من أعلى الجبل حتى تموت، وأناس قالوا: بل دعوها وشأنها سواء طلعت أو رجعت؛ فلا تحركوها، ولا تقربوا منها.

ثم استيقظت من النوم، والناس قد تركوا الحية على حالها.

ولقد كان الناس في عنيزة حيال شأن الوالد على ثلاثة آراء: أناس يتمنون أن يصرف الله القضاء عن الوالد، وأناس يتمنون أن يكون قاضياً للبلد، وأناس قالوا: ندع الخيار لله ـ وحده ـ ونسأله ـ عز وجل ـ الخيرة في أمرنا.

وبعد أن جاء الوالد ومن معه من الحرم خرجنا جميعاً من بيت أخي عبدالله إلى بيت رجل من الجماعة استضافنا على الإفطار.

وكنت غير مكترث بالرؤيا، ولم أُلْقِ لها بالاً، وكان الوالد ومحمد الزامل والأخ عبدالله يتقدمونني بمسافة عشرة أو خمسة عشر متراً؛ فكنت أسير خلفهم أنا وأبو عبود؛ فحدثت أبو عبود عن الرؤيا وهو منصت قد أخذه العجب، وبعدما فرغت من كلامي انطلق نحو الوالد، وهو ينادي: يا شيخ يا شيخ، فوقف الوالد، فقال أبو عبود: أما سمعت رؤيا ابنك محمد فقال الوالد: خير ـإن شاء اللهـ فقصصت الرؤيا على الوالد، وهو منصت، والجماعة يسمعون كلامي، فلما انتهيت، قال الوالد: خيرٌ يكون، أو شرٌّ يهون، يا ولدي إن صدقت رؤياك فأنا ـ إن شاء الله ـ تخلصت من القضاء.

وبعد مُضِيِّ ثلاث ساعات من هذا الموقف جاء الوالدَ ثلاثُ برقيات بواسطة عبدالله بن محمد العوهلي برقيتان من الرياض: واحدة من آل قاضي، والثانية

من عبدالعزيز بن صالح الحماد، وكان يعمل بالديوان الملكي وعلم من البرقيات المرسلة من الرياض إلى عنيزة أنه تم تعيين شخص غير الوالد قاضياً في عنيزة، وأن الملك عبدالعزيز رحمه الله قال: اتركوا ابن سعدي.

وقد وصلت البرقيات للوالد باسم العوهلي، وكان بحي الجودرية، وكان شريكاً للأخ عبدالله.

والبرقية لغز يبشر الوالد أنه خرج من المستشفى، وبرقية آل قاضي ـ أيضاً ـ لغز.

أما البرقية الثالثة فهي من عنيزة من عبدالعزيز العوهلي يبشرون الوالد، بخلاصه من القضاء.

المهم أنه لم يأت وقت صلاة الظهر إلا وكان عدد البرقيات ثلاث؛ ففرح الوالد في ذلك اليوم فرحاً شديداً، وخفت آلامه، وكان متردداً في الذهاب إلى عنيزة؛ خوفاً من تولي القضاء.

لكنه لما سمع الأخبار المفرحة قرر من فوره الرجوع إلى عنيزة والحمد لله رب العالمين».

١٢ـ وهذا موقف يبين حب الناس للشيخ عبدالرحمن السعدي، ورغبتهم في مصاحبته في السفر، وأن ذلك من الأماني التي يتشوفون إليها؛ لما كان عليه الشيخ في السفر من طيب المعشر، وسخاوة النفس، وخدمة الأصحاب..

يقول ابنه محمد: «في إحدى السنوات أراد الوالد الحج، وكان حمد الجبهان صاحب سيارات من عنيزة، وكان طيب النفس، ينفع الناس، ويقوم بخدمة

البريد بدون مقابل؛ فلما أراد الوالد الذهاب إلى مكة أعلم حمد الجبهان بذلك، وقال: احجز لي مكاناً على أول سيارة ولكن لا تخبر أحداً بذلك.

ولكنَّ حمداً هذا لم يصبر؛ فمن شدة فرحه بصحبة الشيخ، ورغبته في إدخال السرور على الناس، ولطيبته الزائدة ـ قام في سوق عنيزة منادياً بصوت مرتفع: من يرغب السفر إلى مكة في هذه السيارة؛ لأن فيها رجلاً سيسافر، وكلكم تحبونه، وترغبون في السفر معه، ولكن لن أخبركم باسمه.

وما إن قال ذلك حتى علم أهل عنيزة بذلك الشخص، وأنه هو الشيخ عبدالرحمن السعدي؛ فبدأوا بالزحام للحجز في هذه السيارة».

١٣ـ وهذا موقف يدل على دعابة الشيخ، ومزاحه مع أحبابه وأصحابه:

يقول ابنه محمد: «كان لوالدي رحمه الله قريب اسمه محمد منصور بن إبراهيم السعدي، وهو صديق للوالد، وقد ولدا في ليلة واحدة؛ حيث ولد محمد أول الليل تقريباً، والشيخ عبدالرحمن ولد عند الفجر؛ فصار محمد يكبر الشيخ بثمان ساعات.

ولما كَبِرا صارت لحية الشيخ عبدالرحمن بيضاء جداً، أما لحية محمد المنصور فكانت سوداء قليلة البياض؛ فإذا اجتمع الوالد مع محمد في مناسبة عند أحد الأصحاب قال الوالد: محمد المنصور أكبر مني بثمان، ويسكت رحمه الله دون أن يبين ما هذه الثمان؛ فيظن الظان أن محمداً أكبر من الشيخ بثمان سنوات؛ خصوصاً وأن محمداً لا يتكلم؛ احتراماً للشيخ، وهو يعلم أن الوالد يمزح.

وحين يبلغ بالحاضرين العجب يخبرهم الشيخ بأن محمداً أكبر منه بثمان

ساعات».

١٤ـ وهذا موقف يبين لطافة الشيخ مع أهل بيته، ومزاحه وحرصه على إدخال السرور عليهم؛ حيث كان ذلك دأبه:

يقول ابنه محمد: «الوالد ـ كغيره ـ يدرك أن النساء يتضايقن من حديث أزواجهن عن الزواج عليهن؛ فكان رحمه الله يمزح مع الوالدة، ويقول لها: أريد أن أتزوج بثانية، ويسميها بـ: أم إبراهيم خصوصاً إذا رأى الوالدة متعبة من عمل المنزل.

وفي يوم من الأيام رآها كذلك، فقال: يا أم عبدالله ما رأيك أحضر لك أم إبراهيم تعينك على عمل المنزل، وتريحك؟

فإذا سمعت الوالدة ذلك غضبت على الوالد، وشرعت في عتابه، وأظهرت النشاط.

وفي يوم من الأيام دخل الوالد المجلس، وأشعل النار، وصنع القهوة والشاي، وأحضر وسادة كبيرة، وألبسها عباءة، فصار الذي يراها من الخلف يظنها امرأة، وسمى هذه الوسادة المغطاة بالعباءة أم إبراهيم.

ووافق ذلك وجود عماتي وهن أكبر من الوالد سناً، ووجود بعض القريبات من محارم الوالد؛ فأتى إليهن وهن جالسات مع الوالدة، وقال: تفضلن عندي بالمجلس أم إبراهيم تدعوكن؛ فأجيبوا، وسلموا عليها؛ هي تنتظركن في المجلس.

فَقُمْنَ كلهن والوالدة معهن، وعندما دخلن القهوة رأين ذلك أمامهن؛ فَظَنَنَّ أنها امرأة حقيقية، غير أن الوالدة كانت تعلم أنها ليست كذلك، وإنما هي مزحة

من الوالد ـ كما هي عادته ـ فقامت وأخذت شيئاً من الأرض، وضربت الوسادة المغطاة بالعباءة، فسقطت العباءة، وتبين أن المغطى وسادة لا امرأة؛ فتعالت الضحكات، وصارت تلك الحادثة تروى ولا تنسى إلى يومنا هذا».

١٥ـ وهذا موقف قريب من الموقف السابق، يقول محمد بن الشيخ عبدالرحمن: «للوالد مواقف كثيرة مع الوالدة؛ فهو يحب مداعبتها خصوصاً إذا كانت مجهدة، فإذا كنا على غداء أو عشاء أقول للوالدة: حبذا لو تأذنين لنا بإحضار خويدمة، تساعدك، وتخدم الوالد، ويتزوجها حتى لا تحتجب عنه.

فإذا سمع ذلك الوالد فرح، وأخذ يمدحني، ويقول: هذا هو الولد الحبيب البار بأمه وأبيه، لكن أنتِ يا أم عبدالله ما رأيك، وماذا يضيرك؟

وحين تسمع أمي ذلك يذهب عنها التعب، وتبدأ بالتظاهر بالنشاط؛ لتري الوالد أنها ما زالت شابة، ثم تبدأ بالعتب عليّ، وتقول: أنت يا محمد ولدي، وتريد أن تحضر لي ضرة؟

والوالد يسر كثيراً من كلامي ، ومن رد الوالدة».

١٦ـ وهذا موقف يدل على تنوع علم الشيخ، واتساع أفقه ومداركه:

يقول ابنه محمد: «لما كنت في مدينة الجبيل رسمت خارطة كبيرة طولها ثلاثة أمتار تقريباً، وقد اقتبست هذه الخارطة من كتاب أطلس العالم، ورتبتها، ولونتها، ووضعت عليها مسارات السفن، وعدد الأميال من بلد إلى بلد، وكذلك حدود الدول.

وفي السنة التي بايع فيها الوالدُ الملكَ سعوداً رحمهما الله بالرياض هو والوفد الذين

جاؤوا معه من وجهاء عنيزة ـ رجع الوفد إلى عنيزة، أما الوالد فوجدها فرصة لزيارة المنطقة الشرقية والسلام على العم سليمان؛ فسكن الوالد عندي في مدينة الخبر، وفي الصباح أذهب به إلى العم سليمان في مدينة الدمام.

وفي أثناء زيارته شاهد الخارطة التي عملتها، وقد كنت محتفظاً بها؛ فأعجب الوالد بالخارطة؛ لكبرها، ووضوحها، وكونها باللغة العربية.

وقال: يا وليدي هذه خارطة جميلة، ونريدها لمكتبة عنيزة؛ فأجبت طلبه، وَوُضِعَتْ في مكتبة عنيزة.

وفي إحدى السنوات حضر الوزير عبدالله بن سليمان إلى عنيزة، وزار المكتبة، ورأى الخارطة، وأعجب بها، وسأل عمن صنعها؛ فقال له الوالد: إنها من صنع الولد محمد، فطلبها الوزير، فأعطاه الوالدُ إياها، وكان بينه وبين الوزير محبة متبادلة؛ فكان الوالد يحب الوزير لفضله على عنيزة وعلى طلبة العلم خصوصاً، والوزير كذلك كان يحب الوالد، ولا يرد له طلباً.

وكان للوالد اهتمام بالجغرافيا، وكان كثير الاطلاع على الخرائط الجغرافية.

وفي إحدى السنوات أحضرت له هدية، وهي عبارة عن مجسم للكرة الأرضية، وهذا المجسم يدار باليد حول محور فيه.

وكان رحمه الله يكرر النظر في المجسم، ويحركها، ويسألني عنها، وأجيب عن أسئلته، وأشرح له بعض المصطلحات الجغرافية وهو منصت لي كالطالب بين يدي معلمه.

وكانت تلك الأيام أيام الحرب العالمية الثانية؛ فإذا سمع من بعض الناس

أغلاطاً رد عليهم خصوصاً فيما يتعلق بالحدود الجغرافية، ومواقع الدول، ومساحاتها، والمتحاربة منها، وكيف أن الدولة الفلانية تحد الدولة الفلانية، وعن أي طريق يتم ذلك وهكذا، والناس يعجبون من كلام الشيخ، ومعرفته، وقدرته على الإقناع.

ومن سمعه ظن أنه متخصص في الجغرافيا من دقة معرفته فيها.

والوالد رحمه الله محب لهذا العلم، وذلك نابع من اهتمامه بأمور المسلمين، وعِلمُ الجغرافيا يمده بالتصور التام لما هو بصدده.

والذي يتأمل في بعض كتبه يلحظ ذلك جلياً.

بل كان رحمه الله يصحح بعض المفهومات الخاطئة في هذا العلم».

١٧ـ وهذا موقف يدل على اهتمام الشيخ بالأحداث العالمية:

يقول ابنه محمد: «في حياة الوالد رحمه الله كان وجود المذياع ـ الراديو ـ نادراً؛ لأسباب عديدة، منها غلاء ثمنه، ولعدم وجود أماكن لبيعه، ولأن الناس لم يتقبلوه في بداية الأمر.

وفي ذلك الوقت كان في عنيزة راديو مشهور وهو موجود في بيت عبدالرحمن بن مقبل الذكير الذي يعد أول من أحضره لعنيزة.

وفي وقت الحرب العالمية الثانية كان الناس يتشوقون لسماع الأخبار، وخصوصاً أخبار الحرب العالمية، وكان الوالد رحمه الله من المتابعين لأحداثها.

وإذا خرجت مع الوالد من المسجد بعد صلاة العشاء مررنا في طريقنا ببيت عبدالرحمن الذكير، فيطلب الوالد مني الوقوف للاستماع إلى المذياع الموجود في

بيت الذكير؛ حرصاً على سماع الأخبار؛ لأن عبدالرحمن الذكير رحمه الله يرفع صوت المذياع؛ ليسمعه الناس المجتمعون في مجلسه، والذين هم خارج المجلس».

١٨ـ وهذا موقف يبين كيفية تعامل الشيخ رحمه الله مع خصومه، ومعارضيه، وكيف كان يداريهم، ويحرص على تضييق هُوَّة الخلاف:

يقول ابنه محمد ـ حفظه الله ـ: «كان في عنيزة رجل من أهل العلم، وكان يعارض أفكار الوالد، وينال منه في بعض المسائل العلمية، ويتكلم، ويسيء إليه في بعض المجالس، ويرد على أقواله واجتهاداته في مسائل عديدة.

ولما علم الوالد بذلك صار يبعثني إلى ذلك الشخص برسائل يخبره فيها أنه راغب في الاجتماع به، ومحب لاستماع وجهة نظره حيال المسائل التي يخالفه فيها، وأنه يود التفاهم معه بصورة ودية؛ حتى لا يحدث عند الناس بلبلة وفتنة.

وذكر له الوالد في معرض تلك الرسائل أنه إذا كان مخطئاً فسوف يتراجع، وإذا كان الحق مع الوالد فيجب على الآخر ترك الوالد وشأنه.

وكانت أغلب اعتراضات ذلك الرجل في مسائل فرعية يسوغ فيها الخلاف.

وكنت في ذلك الوقت صغير السن، وكان الوالد لا يرغب أن يَعْلَمَ أحد بتلك الرسائل؛ بغية الإصلاح، ورغبة في عدم إشغال الناس بتلك الاعتراضات.

وبعد فترة عرفت القصة، وأدركت مضمون تلك الرسائل من بعض أصدقاء الوالد الذين كانوا يتناقشون بخصوص اعتراضات ذلك الرجل.

وقد طلب بعضهم من الوالد أن يلتقي ذلك الرجل في مجلس خاص، للمناظرة في تلك المسائل، فاستجاب الوالد، ولكن لم يتم اللقاء؛ حيث انتقل

ذلك الرجل إلى بلد آخر».

هذا وإن لهذه القصة شاهداً في بعض كتب الشيخ رحمه الله حيث ذكر ذلك على سبيل العموم؛ ليبين كيف يتعامل الإنسان مع من يخالفه، فقال رحمه الله في كتابه الفتاوى السعدية ص٤٧ المسألة الرابعة عشرة: «يعجبني ما وقع لبعض أهل العلم وهو أنه كتب له إنسان من أهل العلم والدين ينتقده انتقاداً حارّاً في بعض المسائل، ويزعم أنه مخطئ فيها؛ حتى إنه قدح في قصده ونيته، وادعى أنه يدين الله ببغضه بناءاً على توهم خطئه، فأجاب المكتوب له:

يا أخي إنك إذا تركت ما يجب عليك من المودة الدينية، وسلكت ما يحرم عليك من اتهام أخيك بالقصد السيِّئ على فرض أنه أخطأ، وتجنبت الدعوة إلى الله بالحكمة في مثل هذه الأمور ـ فإني أخبرك قبل الشروع في جوابي لك عما انتقدتني عليه: بأني لا أترك ما يجب عليَّ من الإقامة على مودتك، والاستمرار على محبتك المبنية على ما أعرفه من دينك؛ انتصاراً لنفسي، بل أزيد على ذلك بإقامة العذر لك في قدحك في أخيك بأن الدافع لك على ذلك قصدٌ حسن، لكن لم يصحبه علم يصححه، ولا معرفة تبين مرتبته، ولا ورع صحيح يوقف العبد عند حده الذي أوجبه الشارع عليه؛ فلحسن قصدك عفوتُ لك عما كان منك لي من الاتهام بالقصد السيء؛ فهب أن الصواب معك يقيناً، فهل خطأ الإنسان عنوانٌ على سوء قصده؟ فلو كان الأمر كذلك، لوجب رمي جميع علماء الأمة بالقصود السيئة، فهل سلم أحد من الخطأ؟! وهل هذا الذي تجرأت عليه[1] إلا

---

١ ـ يعني من الكلام، والرمي بالتهم.

مخالف لما أجمع عليه المسلمون من أنه لا يحل رمي المسلم بالقصد السيىء إذا أخطأ، والله ـ تعالى ـ قد عفا عن خطأ المؤمنين في الأقوال، والأفعال، وجميع الأحوال؟

ثم نقول: هب أنه جاز للإنسان القدح في إرادة من دلت القرائن والعلامات على قصده السيىء، أفيحل القدحُ فيمن عندك من الأدلة الكثيرة على حسن قصده، وبعده عن إرادة السوء ما لا يسوغ لك أن تتوهم فيه شيئاً مما رميته به.؟ وإن الله أمر المؤمنين أن يظنوا بإخوانهم خيراً إذا قيل فيهم خلافُ ما يقتضيه الإيمان، فقال ـ تعالى ـ: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً﴾ النور: ١٢.

واعلم أن هذه المقدمة ليس الغرض منها مقابلتك بما قلت؛ فإني كما أشرت لك: قد عفوت عن حقي إن كان لي حق، ولكن الغرض النصيحة، وبيان موقع هذا الاتهام من العقل والدين والمروءة الإنسانية.

ثم إنه بعد هذا أخذ يتكلم عن الجواب وعن انتقاده بما لا محل لذكره هنا».

١٩ـ وهذا موقف يدل على مراعاة الشيخ لأدب الاستماع، ومراعاة حال المتكلم، وترك مقاطعته، أو الاستخفاف بحديثه ولو كان معلوماً مكروراً:

يقول ابنه محمد ـ حفظه الله ـ: «كان الناس يترددون للوالد، ويحرصون على صحبته، وتجاذب أطراف الحديث معه، وقد كان يبادلهم الشعور نفسه.

وفي أيام الحرب العالمية الثانية كان الناس يتحدثون مع الوالد، وينقلون له أخبار الحرب، وما سمعوه عنها؛ فيأتيه الواحد منهم ولديه خبر أو قصة سمعها

من شخص أو من المذياع؛ فينقله للوالدِ، والوالدُ يصغي إليه، وينصت لحديثه، ويشكره، ويبدي إعجابه، ثم يأتي شخص آخر، فينقل له الخبر نفسه، فيصنع معه الوالد صنيعه مع الأول، فيظن المتكلم أن الوالد لم يسمع الخبر إلا منه، فيشتد فرحه، والوالد يظهر إعجابه، وكأنه لم يسمع الحديث إلا الآن.

وهكذا يتكرر ذلك مع أكثر من شخص؛ فيصنع معهم الوالد كذلك؛ لأجل التحبب إليهم، وجبر خواطرهم، وكسب قلوبهم، وتربيتهم على أدب الحديث والاستماع.

وقد وقفت مراراً على أشياء من هذا القبيل؛ فكان ذلك من جملة الأسباب التي غرست محبته في قلوب الخاصة والعامة».

٢٠ـ وهذا موقف يحكي قصة مرض الشيخ عبدالرحمن رحمه الله وسفره إلى لبنان للعلاج، و بعض ما حدث في تلك الرحلة من أخبار:

يقول الأستاذ محمد ابن الشيخ عبدالرحمن: «في عام ١٣٧٣هـ أصيب الوالد رحمه الله بارتفاع حاد في ضغط الدم، فأثر ذلك على صحته؛ فلما علم الملك سعود رحمه الله بذلك أمر بإرسال طائرة خاصة من الطائف إلى بريدة، وكان فيها اثنان من الأطباء المتخصصين؛ فلما هبطت الطائرة في مطار بريدة اتجه الطبيبان إلى منزل الوالد؛ للكشف عليه؛ فقررا نقله إلى لبنان؛ لأن حالته شديدة، وقال أحدهما: إنه سيتم الكشف عليه مرةً أخرى في المستشفى الجامعي بلبنان، وتُجْرى له الفحوصات الدقيقة؛ فإذا أمكن علاجه في لبنان فالحمد لله، وإلا ينقل إلى أوروبا للعلاج.

وهكذا تم نقله إلى لبنان، وقد رافقته في تلك الرحلة، وكان معنا أبو عبود صالح العباد رحمه الله وهو أحد محبي الوالد؛ فكان الوالد يحبه، وكان يؤنس الوالد، ويصنع له القهوة والشاي، وكانا يصليان في المستشفى آخر الليل جميعاً، وكان الوالد يرتاح له كثيراً، ويلغي الكلفة بينه وبينه، وقد كان على متن الطائرة المتوجهة إلى لبنان سبعة أشخاص: الطيار، ومسؤول اللاسلكي، وطبيبان، والوالد، وصالح العباد، وأنا.

وكان مع الوالد ألفا ريال فضة، ولما أخذنا أماكننا في الطائرة ناداني الوالد، وقال: يا محمد فرِّق الألفين عليهم، وكانت تعادل في ذلك الوقت عشرين ألف ريال أو أكثر في وقتنا الحاضر؛ فأعطيت كل واحدٍ ممن معنا خمسمائة ريال فضة؛ ففرحوا بذلك، وشكروا للوالد صنيعه.

وأثناء الطيران كان الاتصال مباشراً بيننا وبين الديوان الملكي حتى وصلنا إلى لبنان، وكان الملك سعود رحمه الله يسأل عن الوالدِ وهو في الطائرة.

ومن الطريف في هذه الرحلة أن الأطباء لم يُحْضِروا معهم جوازاتهم، وقبل وصولنا إلى لبنان أخبروني بذلك، وقالوا: نحن لبنانيون، ولكن لم نكن نتوقع أنا سنسافر إلى لبنان؛ لذا لم نحضر جوازي السفر؛ فطلبوا مني أن أتدارك الوضع؛ فاتصلت بسفارة المملكة بلبنان عبر اللاسلكي ونحن في الطائرة، وأخبرتهم بحال الأطباء، وأنهم من قِبَل الملك سعود، وأنهم لم يحضروا جوازات السفر؛ فتمت الاتصالات بين السفارة السعودية والحكومة اللبنانية، وتم إعطاء الإذن لهم بالدخول.

وعندما وصلنا إلى مطار بيروت، وفتح باب الطائرة ـ كان في استقبالنا السفير السعودي، وسليمان الغنيم رحمه الله وطبيبان من الجامعة الأمريكية، وسيارة إسعاف؛ فصعد الطبيبان إلى الطائرة، وتحدثوا إلى الوالد، وقاموا بالفحوصات الأولية، وطمأنوه على صحته، وأعلموه باستقرار حاله، ثم نقلوه إلى المستشفى الأمريكي.

وكانت مدة مكث الوالد في المستشفى أسبوعاً على وجه التقريب.

وفي هذا الوقت أعد سليمان الغنيم ـ جزاه الله خيراً ورحمه ـ بيتاً للوالد بمدينة عالية بجبل لبنان، وكان هذا البيت كبيراً، وقد جعل فيه خادماً، وطباخاً، وسيارة خاصة للشيخ الوالد.

وبعد خروج الوالد من المستشفى واستقرار صحته ذهبنا إلى المنزل في عالية، ومكثنا فيه مدة شهر تقريباً.

وكان طيلة فترته يحن إلى عنيزة، ويرغب كثيراً في الرجوع إليها؛ ففي كل يوم يسأل عن وصول الطائرة التي تُقلُّه إلى الوطن؛ لأن تلك الأيام أيام موسم الحج، والطائرات التي تأتي نادرة.

ولما كنا في لبنان قمنا بزيارة إلى دمشق مدتها يوم واحد، فكانت فرصة للوالد؛ كي يزور قبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله والسلام عليه، والدعاء له؛ فقد كان الوالد محباً لابن تيمية، متأثراً به.

وفي تلك الفترة كنت أنزل من مكان إقامتنا في جبل عالية إلى بيروت؛ لمراجعة السفارة السعودية؛ لمعرفة موعد وصول الطائرة التي سنرجع عليها إلى المملكة، ولأجل البريد.

أما الوالد فيبقى في المنزل هو وصالح العباد يستقبلان الناس من المعارف والأقارب وغيرهم ممن يفدون لزيارة الوالد.

وقد زار الوالد في محل إقامته خلقٌ كثير، وكان من بينهم أعضاء جمعية عبادالرحمن يتقدمهم رئيسهم الشيخ عمر الداعوق رحمه الله.

وقد طلب الأطباء من الشيخ في تلك الفترة أن يدع القراءة؛ لأن ذلك يتعبه، وطلبوا منه الراحة التامة، وألا يجهد فكره.

ولما كان في المستشفى اشتريت له كتاباً عنوانه: (دع القلق وابدأ الحياة) للمؤلف الأمريكي دايل كارنيجي، وهو مدير معهد تدريب في أمريكا.

وقد قرأ الوالدُ الكتابَ، وأعجب به، وبمؤلفه، وقال: إنه رجل منصف.

وكان للوالد صديق عزيز عليه من أهل عنيزة، وكان يعاني من مرض نفسي، ومكث في بيروت مدة سنتين للعلاج ولم يستفد، فأعطاه الوالد ذلك الكتاب، وقال له: اقْرَأْه؛ فهو مفيد جداً؛ فَقَرَأَه، وأفاد منه، وتأثر بما فيه، وتحسنت صحته، بل شفي من مرضه.

وقد أمرني الوالد بشراء نسخة أخرى من هذا الكتاب؛ لكي يوضع في مكتبة عنيزة التي أنشأها الوالد، فاشتريت الكتاب، وأعطيته الوالد، ولما عدنا إلى عنيزة وضعه الوالد في المكتبة، واستعاره عدد كثير من طلاب الوالد.

ولما كان الوالد في مقر إقامته في لبنان أرسل أبا عبود إلى السوق؛ ليشتري أوراقاً وأقلاماً؛ لأنه عزم على تأليف رسالة على ضوء ما كتبه كارنيجي في كتابه المذكور، ثم شرع الوالد في ذلك، فتم له تأليف كتابه الصغير حجماً الكبير نفعاً: (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة).

فصارت الأيدي تتناوله، والقراء يتداولونه؛ فعم النفع به، واستدرك مِنْ خلاله كثيراً من الأمور التي فاتت كارنيجي من أصول السعادة.

وقد طبعت تلك الرسالة مراراً كثيرة جداً في حياة الشيخ وبعد مماته.

وإلى يومنا هذا والطلبات من الداخل والخارج تتكرر لأجل طباعتها، بل إن بعض الجمعيات التي تعنى بالطب النفسي تبنت طباعتها، وطبعت منها خمسين ألف نسخة مجانية».

ويقول الأستاذ محمد مبيناً بعض ما حصل في تلك الرحلة: «ولما كان الوالد في لبنان وافق وجود أسرة عمي حمد بن علي القاضي ـ أخو الوالد من الأم ـ.

ولما علم العم حمد بوصول الوالد إلى لبنان أرسل إلى أسرته يقول لهم: اذهبوا إلى عمكم، وسلموا عليه في مكان إقامته في عالية، وأوصاهم بوصايا، وقال لهم: الله الله بالأدب والاحترام، والتقدير لعمكم.

وبعد ذلك حضر لبيت الوالد ثلاث من بنات عمي ووالدتهم، ففرح والدي بهم كثيراً، وباسطهم، وتجاذب معهم أطراف الأحاديث، وأذهب عنهم الوحشة والكلفة؛ فسروا بذلك كثيراً.

ولما عادوا إلى مكانهم كتبوا إلى والدهم: لقد وجدنا عمنا سمحاً، ليناً، هيناً،

بل هو أسمح منك، وقد بسطنا كثيراً؛ فما الذي جعلك تخيفنا منه؟ مع أن الواقع كان بخلاف ذلك».

٢١ـ وهذا موقف يُبِيْنُ عن بعض أخلاق الشيخ في السفر؛ فقد كان يسافر أحياناً على السيارة، وكانت السيارة المستأجرة في وقته هي السيارة المعروفة بالوانيت، وهي عِبَارة عن غمارة، وصندوق: والمقصود بالغمارة المكان المغطى بالحديد من أعلى بالزجاج الأمامي، والزجاجِ الذي على باب السائق والراكب.

وهذا المكان مخصص للسائق، واثنين أو ثلاثة من الركاب.

والغمارة درجة أعلى من الصندوق الذي يتسع لعدد أكثر ولكنه أقل امتيازاً وراحة بالنسبة للغمارة؛ فالصندوق عبارة عن حوض مكشوف يجلس فيه الركاب مع أغراضهم، وحاجاتهم، وربما مواشيهم.

يقول ابنه محمد: «عندما يسافر الوالد بالسيارة كان يتنقل ما بين الغمارة والصندوق؛ فكان يباسط السائق، ثم إذا أحس منه بإعياء انتقل إلى الصندوق؛ لكي يعطي السائق ـ إذا كان مدخناً ـ فرصة للتدخين؛ لأنهم يحرجون من التدخين أمام الشيخ.

ولم يكن الشيخ ليقرهم على ذلك، وإنما هي حكمة سلكها الشيخ مع هؤلاء؛ فهم يحتاجون إلى وقت طويل لنصحهم، والأخذ بأيديهم إلى الإقلاع عن التدخين.

ثم إن في ذلك مصلحة أخرى وهي الحفاظ على أرواح الركاب؛ لأن هؤلاء المدخنين يصابون بالصداع إذا طال عليهم الوقت ولم يدخنوا، وقد يغفلون عن

الطريق، وينحرفون عنه.

ولقد كان لهذه الطريقة الحكيمة أثر على السائقين، بل إن بعضهم أقلع عن التدخين، وازداد حبهم للوالد بسبب هذا المسلك الرائع.

وإذا كان معهم في السفر نساء فإنهن يكن في مقدمة صندوق السيارة، ويكون الرجال في الخلف على حمولة السيارة؛ فالوالد يغتنم هذه الفرصة للحديث، والتعليم، والفتيا، ويرفع صوته لأجل أن يسمع الرجال والنساء على حد سواء.

وإذا نزلوا في مكان في الطريق سار مسافة، أحضر معه ما يجده من حطب لأجل إشعال النار، وعمل ما يُراد عمله من طبخ طعام، أو إصلاح شاي أو قهوة».

٢٢ـ وهذا موقف يتجلى فيه ذوق الشيخ، ورهافة حسه، ومراعاته للمشاعر:

يقول ابنه محمد: «ذكر لي أخي أحمد رحمه الله قائلاً: في يوم من الأيام كان الوالد مدعواً إلى مجلس بعد صلاة العشاء، وكنت مرافقاً للوالد.

وبعد انتهاء المجلس خرجت مع الوالد قاصدين منزلنا، وكان الوقت وقت أمطار، والشوارع مليئة بالمياه، والطين، وكانت مظلمة؛ حيث لا توجد أنوار في ذلك الوقت؛ مما جعل السير صعباً.

وفي أثناء سيرنا شاهدت أحد كبار الجماعة يسير أمامنا على بعد خمسين متراً، فزلق في الطين، ثم قام وقد ابتلت ثيابه، واتسخت وهو لا يدري أننا خلفه؛ فذكرت ذلك للوالد، وكنا قريبين من مفترق طرق؛ فقال رحمه الله دعنا نذهب من الطريق الثاني؛ حتى لا يرانا؛ فيخجل، ويتحرج من رؤيتنا له على تلك الحال؛ فسلكنا الطريق الآخر مع أنه أبعد بالنسبة لنا.

وهذا من حكمة الشيخ وذوقه، ومراعاته لمشاعر الآخرين».

٢٣ـ وهذا موقف تتجلى فيه رحمة الشيخ، وحكمته، وحسن تعليمه:

يقول ابنه محمد: «كان الوالد يمشي في الشارع، فمر به رجل يضرب حماراً له، ويزجره بشدة وقسوة؛ فقال له الوالد: حرام عليك هذا الفعل، أين الرحمة؟

فقال له صاحب الحمار: يا شيخ هذا الحمار لا يمشي.

فاقترب الوالد من الحمار، وأمسك بالحبل المربوط على عنقه، وجره بهدوء، فمشى الحمار، فتعجب الرجل، وقال للوالد: حتى الحمار يعرف إنك شيخ، ويطيعك؛ فضحك الوالد، ولم يعاتبه».

٢٤ـ وهذا موقف يُبِين عن سخاء الشيخ، وعطفه على الفقراء:

يقول ابنه محمد: «روى الأخ عبدالرحمن بن سليمان بن عبدالرحمن البسام قائلاً: في يوم من الأيام المطيرة الباردة وأنا في العاشرة من عمري كنت ذاهباً إلى صلاة الظهر، فشاهدت أمامي الشيخَ عبدَالرحمنِ السعديَّ رَحِمَهُ اللَّهُ وجماعةُ المسجدِ قد صعدوا إلى سطح المسجد؛ لأن الشمس قد طلعت، فصعدوا؛ كي يستدفؤوا تحت حرارة الشمس.

وأثناء صعود الشيخ للسطح من أجل الصلاة بالناس أبصر أحدَ الفقراء وقد جمع بدنه بيديه وهو ينتفض من شدة البرد؛ فرجع الشيخ درجات؛ كي لا يراه أحد من الناس، وخلع بشته ـ عباءته ـ وخلع ثوبه العلوي ـ وكان من عادة بعض الناس في ذلك الوقت أن يلبس في الشتاء ثوبين ـ وقام بلف الثوب ثم لبس عباءته، وصعد الدرج مرة أخرى، وقابل الفقير، وأعطاه الثوب؛ فتبلجت

أسارير الفقير، وصلى الشيخ بالجماعة، ولم يلحظ أحد شيئاً مما حصل إلا أنا دون علم الشيخ برؤيتي لما حصل؛ فتعجبت من ذلك الفعل، ولا زال عالقاً في ذهني».

٢٥ـ وهذا موقف يدل على تشجيع الشيخ، وحسن تربيته للصغار:

يقول ابنه محمد: «روى لي الأخ عبدالرحمن البسام ـ الذي ذكر الموقف السابق ـ قائلاً: إنني في يوم من الأيام كنت جالساً في ركن من سطح المسجد، وكنت أقرأ القرآن، وأنا صغير السن؛ فجاء الشيخ عبدالرحمن رحمه الله وصلى ما كُتِبَ له، ثم التفت إلي وقال: تريد يا عبدالرحمن أن أتدارس أنا وإياك القرآن؟

فقلت: نعم يا عم، فجلست بجانبه، وقال لي: تقرأ أولاً أو أقرأ أنا قبلك؟

فقلت: بل تقرأ أنت يا عم أولاً؛ فشرع الشيخ رحمه الله بقراءة سورة (النبأ) عن ظهر قلب، وأنا أسمع وأتابع له؛ فلما انتهى من السورة بدأت بالقراءة من سورة (النازعات) وهو يستمع ويتابع، ثم قرأ سورة (عبس) وغلط رحمه الله فرددت عليه، وأنا لا أعرف هل غلط حقيقة، أو أنه تعمد الغلط؛ لأجل أن أرد عليه؛ فيتأكد من متابعتي له.

وفي تلك الأثناء جاء والدي ونحن في مجلسنا ذلك، فقال له الشيخ: يا أخ سليمان تعال انظر إلى ولدك عبدالرحمن رد علي؛ لأنني غلطت وأنا شيخ، وهو ما غلط.

وقد أراد رحمه الله من ذلك تشجيعي، ورفع مكانتي عند الوالد؛ فشعرت حينها بأن الفرح قد ملأ قلبي، وأحسست بأنني قد قمت بعمل عظيم، وازداد فرحي

حين التفت والدي نحوي، ونظر إلي بسرور وكأنه يقول لي: ما أعظمك من ولد؛ فذكرت تلك الحادثة لوالدتي، وأهلي، وأصدقائي، ولم يزل أثر تلك الحادثة في نفسي إلى وقتنا الحاضر؛ فهي درس في التربية والتعليم والتواضع؛ فغفر الله للشيخ، ورحمه رحمة واسعة».

٢٦ـ وهذا موقف يدل على رحمته بالناس، وحرصه على مواساتهم، وتخفيف معاناتهم:

يذكر ابنه الأستاذ محمد قائلاً: «إن الأخ عبدالله بن عبدالعزيز القرعاوي كاتب عدل الخبر سابقاً ـ بلغه نبأ وفاة والده، وكان ذلك يوم خميس، وهو في مكة المكرمة يعمل عند الوزير ابن سليمان بالشؤون المالية، فقرر الذهاب إلى عنيزه، وكان عمره آنذاك أربعة وعشرين سنة تقريباً؛ فمكث في عنيزة إلى يوم الخميس الذي يليه، وفي ذلك اليوم توفيت والدته بمرض التيفوئيد؛ فاغتم لذلك أشد الغم؛ لحبه لوالدته، وحب والدته له، ولاجتماع مصيبتين في وقت يسير.

وكان من عادة أهل عنيزة أن يخرجوا مع أهل الميت إلى المقبرة، ويعزوهم في فقيدهم حال الدفن وبعده، أو في السوق، أو في أي مكان آخر، ويكتفون بذلك.

ولما أحس الوالد الشيخ بحال عبدالله المذكور آنفاً، ورأى آثار الحزن الشديد بادية عليه ـ رقَّ له، وخاف عليه؛ فلم يكتفِ بالتعزية داخل المقبرة، بل ذهب إليه في اليوم التالي هو وصاحبه أبو عبود، فزاراه في منزله، وجلس الوالد عنده

يواسيه، ويترحم على والديه، ويخفف مصابه، ويقول له: إنني رهن إشارتك، وتحت خدمتك في كل ما ينوبك؛ جبراً لخاطره، وتسلية له.

يقول الأخ عبدالله القرعاوي: إن جلوس الشيخ عندي وفي مجلسي في ذلك اليوم- أذهب ما في نفسي من الحزن؛ فلا أنسى ذلك الموقف الكريم من الشيخ رحمه الله».

٢٧- وهذا موقف يدل على حكمة الشيخ، وقوة إقناعه، وحسن عرضه لما يريد:

يقول ابنه محمد: «عندما بدأ الوالد الشيخ باستخدام مكبرات الصوت في خطب الجمعة والعيدين وكان من طليعة المستخدمين لها - أنكر عليه بعض الناس، لكنه لم يعبأ بذلك، بل استطاع بحكمته وبصيرته إقناعهم بذلك.

وقد عجبت أشد العجب لما جاءه رجل يلبس نظارة، وينكر استخدام المكبر؛ بحجة أنهم لم يجدوا عليها آباءهم، وأنها من صنع غير المسلمين؛ فلا حاجة لنا بها!

فقام الوالد رحمه الله بخلع نظارة ذلك الرجل من عينيه، وسأله: هل ترى بوضوح؟ فقال الرجل: لا ياشيخ؛ فأعاد الوالد النظارة إلى عينيه، فقال له: والآن؟

قال: الآن، أرى أحسن؛ فقال له الشيخ: يا أخي أنت تعلم بأن النظارة تقرب البعيد، وتزيد العين إبصاراً؛ فكذلك مكبر الصوت يقرب الصوت للبعيد؛ فيسمعه من في آخر المسجد، ومن في خارجه؛ فيفيدون منه.

وكذلك النساء في بيوتهن، والقريبات من المسجد يسمعن ذكر الله، ويُفدن من مجالس العلم؛ فهذه نعمة من نعم الله؛ فعلينا أن نفيد منها في إيصال الحق ونشره».

٢٨ـ وهذا موقف يدل على كرم الشيخ رحمه الله وحرصه على تنشيط الناس على الخير والعبادة:

يقول حفيدُ الشيخِ الأستاذُ مساعدُ السعدي ـ حفظه الله ـ: «كان من عادة أهل عنيزة المعروفة عندهم في ذلك الوقت أن يقسموا ليالي العشر الأخيرة من رمضان إلى قسمين، يَفْصِل بينهما استراحةٌ يتخللها تناول بعض الطعام، والقهوة والشاي؛ كي يتقووا على العبادة، ومواصلة القيام.

وقد ذكرت لي الوالدة ـ ابنة الشيخ ـ أن والدها رحمه الله كان من عادته في هذه الاستراحة أن يستضيف جماعة المسجد الذين يصلون معه؛ فيأتي بهم إلى منزله؛ لتناول التمر، وشرب القهوة والشاي.

وفي حالات كثيرة كان الشيخ هو الذي يقوم بصنع القهوة والشاي، ثم يقوم أحد أبنائه بإدارتهما على الحاضرين.

وقد يقوم بهذه المهمة صديقه الخاص أبو عبود صالح العباد رحمه الله ثم يطيبهم بطيب من عنده إما أن يكون بخوراً، أو دهن عود مما يرسله الموسرون من طلابه لأهل المسجد؛ فيقوم بعدها الجماعة وقد نشطوا لأداء ما بقي من الصلاة، ويذهب ما بهم من جهد وتعب».

٢٩ـ وهذه مواقف مليئة بالحنان، والأبوة والعطف، وحسن التعامل مع الأولاد، وخصوصاً البنات:

يقول الأستاذ مساعد السعدي ـ حفيد الشيخ ـ: «لما سألت أمي عن معاملة الجد الشيخ عبدالرحمن مع أطفال البيت خاصة وأن أمي نورة هي أصغر ذرية الشيخ ـ فاضت عيناها من الدمع، وشرعت تذكر لي بعض ما علق بذهنها من الذكريات عن الوالد، فقالت: كان الوالد يتودد لي، وينادني بـ: النيرة ـ وهي القطعة النقدية من الذهب ـ فاشتهرت بذلك الاسم عند الأهل.

وتذكر أنه كان يعطف عليها، ويحبها، وأنه لم يَضْرِبْها إلا مرة واحدة، وكان ضرباً غير مبرح، وذلك لما عرّضت نفسها للخطر بالصعود إلى أعلى مكان في سطح البيت، وكان عمرها آنذاك سبع سنين.

وتقول ـأيضاًـ: لما كان عمري ثمان سنوات تعودت اللعب مع إحدى الخادمات الصغيرات التي كان تخدم في بيتنا، وكانت تسمى: برجس، وهي صديقة لي في ذلك الوقت، وكان لنا بيت صغير صنعته أنا وإياها من الطين في مقدمة بيتنا الكبير؛ فكنا نلعب معاً بداخله، وأنشأنا فيه وجاراً[1] صغيراً، وصففنا فيه دلال القهوة، وأباريق الشاي.

وكنا نمثل دور الكبار، ونقلدهم؛ فيمضي الوقت ونحن لا نشعر به.

١ـ الوجار كلمة دارجة عند أهل نجد، وهو مكان مستطيل الشكل، يُبْنى من الإسمنت، أو غيره، وتوقد فيه النار، ويوضع فيه دلال القهوة، وأباريق الشاي، ونحو ذلك.

وفي يوم من الأيام طال بنا المقام في اللعب؛ فجاء الوالد الشيخ على عادته اليومية من القهاوي ـ مجالس الناس التي يستضيفون فيها الشيخ ـ فسلم علينا، فرددنا عليه السلام، وقالت له الخادمة برجس: ياعم لَمْ تتناولِ القهوة عندنا قط؟ فقال: يا بنياتي ما عزمتوني ـ أي لم تعرضوا علي ذلك ـ اعزموني وآتيكم.

فقالت برجس: غداً عندنا القهوة فلا تنس.

ولما كان اليوم التالي، وبعد أن رجع الشيخ الوالد من بعض المجالس، ووصل إلى بيته ـ طرق علينا الباب بقوة، وهو يردد: يا برجس، يا برجس يناديها لتفتح الباب؛ ففتحنا الباب، ورحبنا به، ثم جلس في بيتنا الصغير على سجادة فرشناها له في المحْكُمة[1] يشرب القهوة والشاي التي أعددناها له، ويتحدث معنا.

وعند قيامه قال: هاه وأنتِ يا بنيتي نورة متى تعزميني مثل برجس؟

فقلت له: غداً أنا عازمتك على القهوة.

وفي اليوم التالي لما عاد من المجالس التي كان يغشاها بدأ ينادي بصوت: يا نورة؛ ففتحت له الباب، وجلس معنا يتناول القهوة والشاي، ويتبسط بالحديث؛ ففرحنا أشد الفرح بجلوسه عندنا».

١ـ المحْكُمة: كلمة دارجة عند أهل نجد، وهي المكان الذي يجلس فيه صاحب المنزل لعمل القهوة والشاي، وإدارة تنظيم الجلسة، وإكرام الضيوف.

ويضيف الأستاذ مساعد السعدي في روايته عن والده قائلاً: «تقول[١] الوالدة ـحفظها اللهـ: لازلت أتذكر تلك الأوقات الجميلة حين يأتي الوالد للغداء فنجتمع ـ نحن أهل البيت ـ حوله؛ فيأنس بنا، ونتحدث إليه، ويتحدث إلينا.

وكانت عندنا قِطةٌ صغيرة ذكية تعرف وقت غداء الوالد؛ فإذا جلس رحمه الله للغداء جاءت عنده، وجلست بجواره؛ فكان يمسح على ظهرها، ويطعمها من غدائه؛ فإذا نهرها أحدٌ منا عاتبه، وقال: دعوها تتغدى معنا هي من أهل البيت.

وتقول الوالدة: وإذا قدمنا للوالد القهوة أو الشاي كان يداعبنا، ويقول مازحاً: صبوا ثلاثة فناجيل، فنجال له، وفنجال لزوجته الوهمية أم إبراهيم، والثالث لزوجته الوهمية الأخرى أسماء.

أما أم إبراهيم فقد مضى ذكرها، وأما أسماء فلها قصة خلاصتها أن الشيخ عبدالرحمن لما كان في مكة المكرمة، وكان نازلاً في بيت ابنه عبدالله ـ كان لهم جيران قريبون منهم، وكانت نوافذهم تشرف على بيت عبدالله ابن الشيخ.

وكان لهؤلاء الجيران طفلة صغيرة خفيفة الظل تسمى أسماء، وكانت تشاهد من خلال نوافذهم دخول الشيخ وخروجه.

وفي يوم من الأيام جاءت هذه البنت مع والدتها لزيارة بيت الأخ عبدالله؛ فلما اجتمعت النسوة كانت هذه البنت تقول لوالدتي ـزوجة الشيخ عبدالرحمنـ: سوف أتزوج أبوكم الشايب، تقصد الشيخ، والوالدة ترد عليها، وتضحك من كلامها.

٢ـ تقول هذا الكلام بعد وفاة والدها الشيخ بإحدى وخمسين سنة.

فلما جاء الوالد كعادته، وجلس إلى أهل بيته ذكروا له ما قالت تلك الطفلة؛ فضحك من قولها، وبدأ يعلق على حديثها، ويداعب الوالدة في ذلك حتى إنه كان يسمى بعض الغرف في المنزل باسمها، ويأمرنا إذا ناولناه الشاي أن نناوله ثلاثة فناجيل ـ كما مر ـ».

«خامساً: الشيخ عبدالرحمن السعدي ورسالة يأجوج ومأجوج»

خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى، وقبل الدخول في قصة رسالة الشيخ عبدالرحمن السعدي يحسن الوقوف على شيء من شأن يأجوج ومأجوج.

أ- التعريف اللغوي: قيل: هما اسمان عربيان، وقيل: أعجميان، وقد قرأهما عاصم بالهمز، والباقون بغير همز.

قال القرطبي رحمه الله: «وقرأ عاصم (يأجوج ومأجوج) بالهمزة فيهما وكذلك في الأنبياء على أنهما مشتقان من أجَّة الحر، وهي شدته، وتوقده، ومن أجيج النار، ومن قولهم أماج فيكونان عربيين من أج ومج، ولم يُصْرَفا؛ لأنهما جعلا اسمين؛ فهما مؤنثان معرفتان.

والباقون - أي باقي القراء - بغير همز جعلوها لقبيلتين أعجميتين، ولم يصرفا؛ للعجمة، والتعريف»[1].

ب - أصلهم: أصل يأجوج ومأجوج من البشر، ومن ذرية آدم وحواء.

قال القرطبي رحمه الله: «وهما أمتان من ولد يافث بن نوح، مدَّ الله لهما في العمر، وأكثر لهما في النسل حتى ما يموت الرجل من يأجوج ومأجوج حتى يولد له ألف ولد، فولد آدم كلهم عشرة أجزاء، يأجوج ومأجوج منهم تسعة

١- التذكرة للقرطبي ص ٧٨٤.

أجزاء، وسائر ولده كلهم جزء واحد»[١].

ج ـ الأدلة على أنهم من ذرية آدم: جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ـ تعالى ـ: «**يا آدم!** فيقول لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: «**أخرج بعث النار**».

قال: وما بعث النار؟

قال: «**من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين**».

فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد».

قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟

قال: «**أبشروا؛ فإن منكم رجلاً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً**»[٢].

وعن عبدالله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: «**أن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وأنهم لو أرسلوا إلى الناس لأفسدوا عليهم معايشهم، ولن يموت منهم أحد إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً**»[٣].

د ـ صفتهم: أما صفتهم التي جاءت بها الأحاديث فهي أنهم يشبهون أبناء

١ـ التذكرة ص٧٨٢ـ٧٨٣.

٢ـ رواه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

٣ـ منحة المعبود٢/٢١٩ وروى الحاكم طرفاً منه ٤/٤٩٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي».

جنسهم من الترك الغتم[١] المغول، صغار العيون، ذلف الأنوف، صهب الشعور، عراض الوجوه، كأن وجوههم المَجَانُّ المُطرَقة على أشكال الترك وألوانهم[٢].

والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم، ففي حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم أن الله ـ تعالى ـ يوحي إلى عيسى ـ عليه السلام ـ بخروج يأجوج ومأجوج، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم، ويأمره بإبعاد المؤمنين من طريقهم ويقول: «**أحرز عبادي إلى الطور**»[٣].

هـ ـ فسادهم: إذا خرج يأجوج ومأجوج حصل على أيديهم أذى كبير، وفتنة عظمى، وشر مستطير.

وهم جموع كثيرة حتى إنهم؛ لكثرتهم إذا مر أولهم على بحيرة طبرية عند خروجهم شربوا الماء الذي فيها جَميعَه؛ فإذا مر آخرهم قالوا قد كان في هذه البحيرة ماء[٤].

قال ابن العربي رحمه الله: «وأما خروج يأجوج ومأجوج فإنه يكون بعد نزول

١ـ الغتم: العجم.

٢ـ انظر مسند الإمام أحمد ٢٧١/٥ بهامشه منتخب الكنز.

٣ـ مسلم (٢٩٣٧).

٤ـ انظر الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة د. عبدالرزاق البدر ص٢٥٣ـ٢٥٤.

عيسى ـ عليه السلام ـ وهما أمتان مُضرتان مفسدتان كافرتان »[١].

هذا وسيتضح شيء من إفسادهم في الفقرات التالية:

و ـ أدلة خروجهم من القرآن: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ(٩٧) ﴾ الأنبياء.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً (٩٩) ﴾ الكهف.

فهذان الموضعان من كتاب الله فيهما دلالة واضحة على خروج يأجوج ومأجوج قبل يوم القيامة، وأن خروجهم أحد علامات الساعة التي تكون قبل قيامها.

---

١ ـ عارضة الأحوذي لابن العربي ٣٤/٩.

فهذه الآيات تدل على أن الله سخر ذا القرنين[١] الملك الصالح لبناء السد العظيم؛ ليحجز بين يأجوج ومأجوج وبين الناس؛ فإذا جاء الوقت المعلوم، واقتربت الساعة اندك السد، وخرج يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة، وجمع كبير لا يقف أمامه أحد من البشر، فماجُوا في الناس، وعاثوا في الأرض فساداً.

وهذا علامة على قرب النفخ في الصور، وخراب الدنيا، وقيام الساعة[٢].

ز ـ أدلة خروجهم من السنة: الأحاديث الدالة على خروج يأجوج ومأجوج تبلغ حد التواتر المعنوي، وقد سبق ذكر لبعضها.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها.

١ـ ذو القرنين: اختلف في اسمه؛ فروي عن ابن عباس أن اسمه عبدالله بن الضحاك بن معد، وقيل: مصعب بن عبدالله بن قنان من الأزد ثم من قحطان، وقيل غير ذلك وسمي بذي القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشيطان ويغرب، وقيل: لأنه ملكها، وقيل رأى في منامه أن أخذ بقرني الشمس، وقيل: كان له قرنان أي صغيرتان، وقيل: لأنه عمر حتى فني في زمنه قرنان من الناس وكان عبداً صالحاً مؤمناً، وهو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني المصري، فإن هذا كان كافراً وهو متأخر عن المذكور في القرآن، وبينهما أكثر من ألفي سنة. انظر البداية والنهاية٢/١٠٢ـ١٠٦، وتفسير ابن كثير ٣/٩٨ـ٩٩، وفتح الباري٦/٣٨٢ـ٣٨٦.

٢ـ انظر تفسير ابن كثير ٣/٩٨ـ١٠١، والتذكرة ص٧٨٣، وأشراط الساعة د.يوسف الوابل ٣٧٠ـ٣٧١.

قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[١].

ح ـ **هلاكهم**: يكون هلاك يأجوج ومأجوج بعد أن يقتل عيسى الدجالَ حيث يُهلك الله يأجوج ومأجوج ببركة دعاء عيسى ـ عليه السلام ـ كما جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل، وفيه: «**إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور.**

ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولئك على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء، ويُحْصَر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابهُ، فيرسل الله عليهم النغف[٢] في رقابهم فيصبحون فرسى[٣] كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[٤] ونتنهم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت[٥]، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله» رواه مسلم.

١ـ رواه البخاري(٣٣٤٦)، ومسلم(٢٨٨٠).

٢ـ النغف: جمع نغفة، وهي الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم.

٣ـ فرسى: أي هلكى، وهو جمع فريس يعني مفروس مثل قتيل وقتلى وصريع وصرعى، وأصله من فرس الذئب الشاة، وأفرسها أي قتلها؛ كأن تلك النغف فرستهم.

٤ـ زهمهم: الزهم النتن.

٥ـ البخت: إبل غلاظ الأعناق، عظام الأجسام. انظر التذكرة ص٧٧٢ ـ٧٧٣.

وزاد في رواية بعد قوله: «لقد كان بهذه ماء»: «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[١]، هو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بِنُشَّابهم[٢] إلى السماء، فيرد الله عليهم نُشَّابهم مخضوبة دماً»[٣].

هذه نبذة عما جاء في أخبار يأجوج ومأجوج.

ـ قصة كتابة الشيخ عبدالرحمن السعدي لرسالة يأجوج ومأجوج:

لم يزل أهل الإسلام وعلماؤهم خاصةً يشتغلون بمسألة يأجوج ومأجوج بحثاً ودرساً، لعظم خطرها، وبعد أثرها؛ فكان أن كتب الشيخ العلامة عبد الرحمن ابن ناصر السعدي رحمه الله رسالة في حقيقة يأجوج ومأجوج، ومعنى خروجهم، والمراد بانفتاح ردم ذي القرنين، وما يتصل بذلك؛ فأحدثت دوياً هائلاً، وجدلاً واسعاً في بلاد نجد، وانقسم الناس حولها ما بين مؤيد معجب، ومنكرٍ منتقد، ولَحِقَ الشيخ بسببها نوع أذىً ومحنة سرعان ما انقلبت نعمة ومنحة، بسبب حسن مقصده، وسلامة نيته، وإن كان شأنه شأن غيره من بني آدم، يصيب يخطئ، ويسدِد ويقارب ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.[٤]

١ـ جبل الخمر: الخمر: الشجر الملتف الذي يستر من فيه. انظر شرح النووي لمسلم ٧١/١٨.

٢ـ النشاب: يطلق على النبل والسهام وواحدته: نشابة.

٣ـ رواه مسلم (٢٩٣٧).

٤ ـ انظر إلى كتاب: رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج للشيخ عبدالرحمن السعدي، تحقيق الشيخ د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي ص٤٥ـ٤٦، وقد أفدت كثيراً مما في هذا المبحث من مقدمة الشيخ أحمد للكتاب المذكور.

وقد كتب الشيخ عبدالرحمن هذه الرسالة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ، كما يدل على ذلك خطاب وجهه الشيخ إلى أحد كبار تلامذته، وهو الشيخ عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل ـ حفظه الله ـ حين كان قاضياً في جازان، مؤرخٌ في ٢٧/ ربيع الأول / ١٣٥٩ هـ، جاء فيه:

«.. ولا استجد لنا من الفوائد شيءٌ ها الأيام غريب، سوى أننا ها اليومين كتبنا رسالة في دلالة الكتاب، والسنة، والعقل، وأقوال المؤرخين، على أن يأجوج ومأجوج هم الأمم الذين ظهروا على الناس في هذه الأزمان، من أصناف الفرنج، والأمريكانيين وغيرهم، وأن المسألة مسألة قطعية، وذكرنا عدة وجوه دالة على ذلك، ولما كتبتها أخذها الإخوان عندهم»[١].

فكان أن تداولتها الأيدي، فسعى بعض الناس لدى ولاة الأمر والمشايخ في الرياض في شأن الرسالة المذكورة، فجاءت برقية من الملك عبد العزيز ابن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله يطلب حضوره إلى الرياض مصطحباً تفسيره، وحصل للناس هم عظيم[٢]، ولكن الله سلم.

ويصف الشيخ نفسه هذه الرحلة في خطابٍ مؤرخ ١٠ شعبان ١٣٦٠ هـ، موجه لتلميذه الشيخ عبد الله بن عقيل ـ حفظه الله ـ فيقول: «.. ولا بد بلغك سفرنا للرياض، وأسبابه، ونتائجه، وأنه باستدعاءٍ مستعجل من الملك،

٢ـ الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الرسالة الرابعة ص ٥٠ عناية وتحقيق، هيثم بن جواد الحداد.

٣ـ انظر: روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين. للشيخ محمد بن عثمان القاضي ٢٢٢/١.

لنحضر، ونحضر معنا التفسير، لا بد أحد معترض علينا، وفعلاً بادرنا للحضور، وإحضار التفسير، فرآه بعض المشايخ فاستحسنوه ولم يحصل بحث في مسألةٍ واحدةٍ أصلاً، ولكن المشايخ ـ جزاهم الله خيراً ـ حصل منهم من إكرامنا فوق ما يظن الظان، والملك قال بحضرة الجميع: إنه ما بينك وبين المشايخ من فضل الله أقل اختلاف، وإنه لم يعترض عليه أحدٌ من الحاضرين، ولا من غيرهم، فأبديت له الشكر، وأني ممنون[١] إذا رأى عليَّ أحدٌ خطأ أن ينبهني، فإني ممنون بذلك من صغار الطلبة، فضلاً عن المشايخ الذين هم أُبْوة[٢] للعرب.

وحصل للناس انزعاج من سفري، وطلب الجماعة[٣] أنهم يراجعون فيَّ، أو يركبون معي، فمنعتهم، وأخبرتهم أني لا أكره الحضور هناك، وأنه لا بد أن يحصل فيه مصالح، فوقع لله الحمد كما ظننت، وحصل التعارف التام مع المشايخ، وأقمنا في الرياض ستة أيام، ثم رجعنا بصحبة الملك إلى الوطن مسرورين راجين المولى أن يتم نعمه على الجميع، وأن يحسن العواقب لنا ولكم في الدنيا والآخرة.

أخبرتك بحاصل ذلك، خوفاً أن يصوَّر على غير صورته»[٤].

---

١ ـ هذه كلمة دارجة عند أهل نجد، ومعناها: إنني مستعد لما يطلب مني بكل سرور وارتياح.

٢ـ مراده رحمه الله: آباء، وهي عامية، وأقرب لفظٍ فصيح في معناها، أُبُوَّة أي (الآباء مثل العمومة والخؤولة) لسان العرب ١/٥٨.

٣ـ مراده رحمه الله: إن وجهاء أهل بلده ـ عنيزة ـ استأذنوه في السعي والشفاعة لدى الملك في إعفائه من السفر.

٤ـ الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الرسالة الثالثة عشرة. ص٩٨ـ ٩٩.

تلك رواية الشيخ رحمه الله رواها باختصار، وقد بسطها أحد كبار تلامذته وأصحابه، وهو الشيخ عبدالله بن محمد العوهلي رحمه الله في رسالة بعث بها إلى زميله في الطلب، الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل ـ حفظه الله ـ نقتطف منها ما يتعلق بالمقام، مع إبهام أسماء من سعى في هذه الوشاية ـ غفر الله لهم، وتجاوز عنهم ـ:

«بسم الله الرحمن الرحيم... من الطايف في ٢٥ شعبان ١٣٦٠هـ إلى فَرَسَان.

حضرة الأفخم الأخ المكرم عبدالله بن عبدالعزيز العقيل المحترم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته دمتم في خير وسرور...

أخبارنا خير وسرور حدث في الشهر الماضي ما كدر الخواطر ـ ولكن الحمد لله ـ العاقبة حميدة.

وذلك أن بعض المغرورين من الجماعة قد انتقدوا على الشيخ عبدالرحمن، والمشتهر منهم ثلاثة (...) وقد بلغ بهم الأمر إلى أن كتبوا إلى (...) يعترضون على الشيخ عبدالرحمن في بعض فتاويه، ويعترضون على تفسيره، وعلى كلامه في يأجوج ومأجوج.

وأرسلوا إلى (...) رسالة الشيخ في يأجوج ومأجوج، هذا وهم لم يبحثوا مع الشيخ في شيء أصلاً، ولم يزل الكلام يزيد حتى قدحوا في تفسيره، وأنه مخالف لمذهب السلف، حسبهم الله.

ثم إن (...) كتب للمشايخ في الرياض، وجاء برقية لابن فيصل من الملك يطلب حضور الشيخ للرياض، وأنه يجيب[1] تفسيره معه، وقد انزعج الجماعة

---

١ ـ هذه كلمة عامة معناها: يحضر.

كلهم من استلحاق الشيخ، وكذلك الأمير، واجتمعوا، وطلبوا أنهم يراجعون الملك، أو أنه يروح كبار الجماعة للرياض مع الشيخ، أو، أو، أو ألخ، ثم عرضوا ذلك على الشيخ، فلم يزل يسكنهم، ويقنعهم ـ ربنا يمتع فيه ـ وهو منشرح صدره، مطمئن، ومن جملة ما قال للجماعة: لو خيّرني الملك لاخترت القدوم على الرياض، فعسى أن أستفيد وأفيد، والقصد اتباع الحق، فإن كان الحق معي فالحمد لله، وإن كنت مخطئاً رجعت، والحمد لله.

أما الذين انتقدوا على الشيخ فقد سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا، وندموا لما رأوا من مقت الناس لهم، وصاروا عند الناس مبغوضين جداً.

وقد قدم الشيخ إلى الرياض، ومنع الجماعة أن يروح معه أحد منهم، ولم يقدم معه إلا ابنه أحمد، وعلي الشيوخ، وصالح العلي السليم. . . سافروا بسيارة الأمير، ومن حسن حظي أن صادف أني في تلك الأيام في الرياض، قادم إليه لقضاء لازم، وقد اجتمعت بالشيخ وحصل لي الأنس والسرور به، وبما حصل له من الإكرام والعز في الرياض عند الملك والمشايخ، لما وصل الرياض سلم على الملك، وأكرموه المشايخ كلهم، وعزموه كلهم، واطلعوا على مكارم أخلاقه.

وفي يوم الخميس حضر المشايخ على العادة عند الملك، وبعد حضورهم طلب الشيخ من بيته؛ لأنهم نزلوه في بيت، وحضر عند الملك والمشايخ، ثم قال له الملك: هذولا[1] إخوانك المشايخ، تراهم ـ والله ـ ما قالوا فيك ولا كلمة، وإنهم والله يمدحونك، وأفعالك جميعها جايزة لنا[2].

---

١ ـ هذولا بلهجة أهل نجد أي: هؤلاء.

٢ ـ أي أنها محل رضانا وإعجابنا.

وردد قوله: إن المشايخ ما قالوا فيك ولا كلمة، لا الحاضر منهم ولا الغايب، وإنهم يثنون عليك، ويحبونك، إلى أن قال: فقط، اتركوا البحث في يأجوج ومأجوج، لأنه فيه تشويشاً على الناس بلا فايدة.

قال الشيخ: إني دعيت له[١]، وقلت: لا بأس، أنا قلت: هذا اجتهاد مني ولا ظنيت أن يحصل فيه تشويش، والآن نترك البحث فيه، ولا هي مسألة حلال أو حرام، والأمر خفيف، قال الملك: إننا مشغولون بالسفر للقصيم، وإلا اجتمعنا فيك، فأنت إن شاء الله خوي[٢] لنا بكرى[٣] بعد صلاة الجمعة، نمشي لأجل نجتمع فيك بالبَر.

ولما صلينا الجمعة، مشى الشيخ مع الشيوخ[٤] مكرم غاية الإكرام، حتى إن الملك أكد على خوياه أن سيارة الشيخ تكون خلف سيارة الملك، ولا يتقدمها سيارة.

ورجع إلى الوطن مسروراً، والجماعة مسرورون من سروره، متع الله بحياته...».

وهناك رواية ثالثة أملاها الأستاذ محمد ابن الشيخ عبدالرحمن السعدي وهي موجودة في المذكرة التي أعدها الأستاذ مساعد السعدي.

٣ـ المراد: دعوت الله له.

٢ـ خَوِيّ، وتجمع على اخْوَيا بلهجة أهل نجد أي: مرافق وصاحب.

٣ ـ بكرى: يعني غداً.

٤ ـ يعني بهم الملك والأمراء؛ فقد كان أهل نجد يسمونهم الشيوخ.

وهذه الرواية تشتمل على تأكيد ما مضى من الروايتين، وعلى مزيد تفصيل؛ إذ هو ممن عايش تلك الحقبة.

يقول الأستاذ محمد السعدي: «جاءت برقية من الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى أمير عنيزة عبدالله بن خالد السليم رحمه الله عن طريق أمير بريدة؛ لأن عنيزة في ذلك الوقت لا يوجد فيها برقية.

وفي هذه البرقية طلب حضور الشيخ عبدالرحمن إلى الرياض ومعه تفسيره للقرآن الكريم، ورسالة يأجوج ومأجوج؛ فقام أمير عنيزة بتسليمها للوالد، فلما استلمها قال: السمع والطاعة لولي الأمر.

وكان رحمه الله لا يرغب أن يعلم أحد بمحتوى الرسالة، لكن ذلك لم يتيسر له؛ حيث انتشر الخبر، وصار حديث الناس؛ فقام أهل عنيزة، وقالوا للشيخ: إننا نرسل عشرة من كبار أهل عنيزة إلى الرياض، وننظر في طلبات الملك، وأنت تبقى في عنيزة.

لكن الوالد رحمه الله رفض طلبهم، وقال لهم: أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم؛ فأنا ذاهب إلى ملك عادل، وأعرف من نفسي أنني لم أرتكب خطأً؛ فلعل هناك التباساً يحتاج إلى توضيح.[1]

---

١ ـ سمعت من سماحة شيخنا الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ونحن عنده في منزله عام ١٤١٥هـ تقريباً يقول: «لما استدعي شيخنا الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله من قبل الملك عبدالعزيز رحمه الله لقيه رجلٌ عاميٌّ صالح وقال: يا شيخ عبدالرحمن! كيف الذي بينك وبين الله؟

فقال الشيخ: عامرٌ ـ إن شاء الله ـ فقال له الرجل العامي: إذاً لا عليك، ولا تخف من أحد».

وهكذا اقتنع الجماعة بذلك، وأرادوا أن يرسلوا رجلاً يحمل كتابات من أهل عنيزة إلى الملك عبدالعزيز يبينون فيها سيرة الوالد، وهذا الرجل هو عبدالرحمن الدخيل رحمه الله حيث رافق الوالد في السيارة التي نقلتهم إلى الرياض.

كذلك أرسلت إمارة عنيزة كتابات للملك تزكي الشيخ، وتبين مكانته العلمية، ومنزلته عند الناس، وقام بحمل تلك الكتابات صالح بن علي السُّليم رحمه الله نيابة عن آل سُليم أمراء عنيزة دون علم الوالد؛ حيث كانوا يخفون ذلك عن الوالد؛ لعلمهم أن الوالد لا يرضى بإرسال مندوب من الإمارة، لكنهم عمدوا إلى حيلة، وهي أنهم جعلوا صالح السليم يذهب مشياً على قدميه إلى جهة الوادي وكأنه يريد محلاً له في الوادي، واتفقوا مع سائق السيارة التي كانت تُقِلُّ الشيخ على أَنْ إذا توجه إلى بريدة ومنها إلى الرياض، ومر بطريق الوادي، ورأى صالح السليم أن يقول ـ أي السائق ـ للشيخ عبدالرحمن: هذا العم صالح السليم سيذهب إلى مزرعته؛ فما رأيك يا شيخ أن نأخذه معنا؛ لأن الشيخ سيوافق على ذلك.

وقد تحقق ذلك، والشيخ لا يعلم أن هذا الأمر متفق عليه من قبل.

ولما ركب صالح السليم وكانت معه الكتابات التي ـ كتبها آل سُليم للملك ـ قال صالح السليم للوالد الشيخ: إلى أين أنت ذاهب يا شيخ خذوني معكم للوادي، ثم بدأ صالح يسأل الشيخ، ويقول له: إلى أين ستذهبون، فقال الوالد: إلى بريدة نريد السلام على الأمير عبدالله الفيصل؛ فقال صالح: أريد الذهاب معكم، فقال له الوالد: حياك الله أهلاً وسهلاً.

بعد ذلك ذهبوا جميعاً إلى بريدة، وهم: الوالد، وصالح بن علي السليم، وعبدالرحمن الدخيل، وعلي الشيوخ، والسائق عبدالرحمن الشحيتان، وكانت السيارة لأمير عنيزة عبدالله بن خالد السليم.

وبعد وصولهم إلى بريدة اتجهوا إلى منزل الأمير عبدالله الفيصل، ولعلهم تناولوا الغداء عنده.

ولما أراد الوالد مواصلة السير إلى الرياض قام صالح السليم، ورغب في صحبته إلى الرياض، وأقسم أيماناً مغلظة ـ فاستجاب الوالد له، وأذن له بأن يرافقهم صالح إلى الرياض.

وكان الوالد قبل ذلك لا يريد أن يصحبه غير الذين خرجوا معه من عنيزة.

ولما وصل الوالد إلى الرياض اتجه إلى مقر إقامته هناك؛ حيث تم إعداد بيت كبير مفروش، تتوافر فيه جميع الاحتياجات من طعام وغيره.

وقد وافق وصول الوالد إلى الرياض يوم الجمعة؛ فقابل مندوب الملك، فقال للوالد: سوف تتم مقابلة الملك يوم الاثنين؛ لأن عادة المشايخ أن يحضروا جميعاً عند الملك للسلام عليه في ذلك اليوم؛ فانتظرَ الوالدُ إلى ذلك اليوم.

وفي تلك الأثناء أرسل الوالد إلى المشايخ نسخاً من كتابه التفسير، وكذلك رسالة يأجوج ومأجوج؛ حتى يطلعوا على ما فيهما قبل مقابلة الملك.

وفي تلك الفترة قام كثير من المشايخ بزيارة الوالد في بيته، وكان الشيخ عمر آل الشيخ يحب الوالد كثيراً.

وفي يوم الأثنين الموعود ذهب الوالد للقصر الملكي، وجلس في مكان يجتمع

فيه المشايخ، للسلام على الملك.

هذا وقد وصل إلى الديوان الملكي يوم السبت كتاباتُ جماعةِ أهالي عنيزة، وكتابات آل سليم.

ولما حضر الملك قام المشايخ للسلام عليه، ثم قام المشايخ بالثناء على الوالد، في مجلس الملك[١] ثم تكلم الملك رحمه الله وأثنى على الوالد، وقال له: المشايخ اطلعوا على التفسير، وأعجبهم، فاستمر به، أما رسالة يأجوج ومأجوج فلم يجئ وقتها، فدعها عنك، واحتفظ بها.

فقال الوالد للملك: إذا أحد من المشايخ يريد أن يسأل عن شيء، أو يريد نقاشاً حول مسألة فأنا تلميذ من تلاميذهم، وجزاهم الله عني خير الجزاء.

فقال الملك: على ما قلت لك أما التفسير فانشره، وأما الرسالة فاتركها في الوقت الحاضر، ولا يحتاج الأمر إلى نقاش وبحث في هذا المجلس.

وبعد ذلك انفض المجلس بالسلام على الملك وعلى الوالد، فقال الملك للوالد: تراك خوي[٢] لنا؛ لأننا نريد الذهاب إلى القصيم بعد يومين، فقال الوالد: السمع والطاعة، فقال له الملك: الموعدُ المِدِيُّ[٣] عقب صلاة عصر يوم كذا وكذا.

وبعد خروج الوالد من مجلس الملك، وانتهاء الاجتماعات ـ كان هناك رجل واقف مُرْسَلٌ من قبل ولي العهد سعود بن عبدالعزيز رحمه الله وكان هذا الرجل ينتظر

---

١ ـ سمعت أن الشيخ عبدالرحمن لما أقبل للسلام على الملك عبدالعزيز تقدمه الشيخ عبدالعزيز بن باز وقال: تفضل يا شيخنا عبدالرحمن.

٢ ـ يعني صاحباً لنا في الطريق.

٣ ـ المدي كلمة عامية معروفة عند أهل نجد، وتعني مجمع الماء.

خروج الوالد، فلما خرج قال له: ولي العهد يريد مقابلتك.

فذهب الوالد إلى مكتب ولي العهد، وقابله، وكان يحب الوالد، ويقدره، فدخل الوالد عنده، ولم يدخل أحد معه ممن رافقوه، ولا ندري ماذا دار في ذلك المجلس.

وبعد اجتماع الوالد بولي العهد خرج، ثم توجه إلى مقر إقامته في الرياض بانتظار يوم الرحيل إلى عنيزة؛ فتوافد كثير من أهل عنيزة، ومن محبي الوالد إليه للسلام عليه، وتهنئته على نجاحه، وثناء الملك والمشايخ عليه.[1]

ولما كان يوم الرحيل إلى عنيزة، مررنا على المدي ـ مجمع الماء ـ وتزودنا من الماء، ثم وقفنا في ممر سيارة الملك، وكانت الشوارع في ذلك الوقت غير مسفلتة.

وبعد وقوف الوالد على الطريق مدة خمس دقائق جاء موكب الملك، فانحرفت سيارته تجاه سيارة الوالد فسلم على الوالد وعلى من كان معه، وكنت معهم تلك الأيام؛ حيث وافق وجود الوالد وجودي في الرياض؛ فرافقت الوالد عندما رجع إلى عنيزة.

ولما وصلنا إلى عنيزة قبيل المغرب بنصف ساعة تقريباً ـ وجدنا جمعاً غفيراً من أهالي عنيزة ينتظرون الوالد خارج البلد؛ لاستقباله، ولما رأوا الوالد فرحوا أشد

---

١ ـ وفي تلك الأيام تعاقب المشايخ والعلماء على زيارته، واستضافته وعلى رأسهم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله.

يقول معالي الشيخ عبدالعزيز بن الشيخ محمد بن إبراهيم: «ويوم أن زار الشيخ عبدالرحمن بن سعدي سماحة الشيخ محمد ـ رحمهما الله ـ قابله الشيخ محمد مقابلة تكريم واحترام، وأجلسه في مجلسه الخاص، وجلس الشيخ محمد عن يمينه» انظر بحث د. محمد الشويعر في مجلة البحوث الإسلامية عدد ٥١ / ص٣٣٢ بعنوان: «الشيخ محمد بن إبراهيم عالم الديار السعودية وفقيهها».

الفرح، مع أنهم لا يعلمون متى سيصل، ولكنهم كانوا يتحرون وصوله إلى عنيزة.

وهذا دليل على مدى ما يكنونه من محبة للوالد.

ومما يذكر من سماحة الوالد، وسعة صدره أنه لما رجع إلى عنيزة لم يعاتب أيًّا أحد ممن تسبب بتلك الوشاية، فلم يحقد عليهم، ولم يتكلم بهم في المجالس، بل كان رحمه الله يعتذر لهم، ويقول: إنهم مجتهدون، وهذا رأيهم.

ولما بدأ أهل عنيزة باستضافة الوالد الشيخ على القهوة بعد وصوله ـ كان ممن عرض عليه الاستضافة أحد المعارضين له، وأحدُ مَنْ كان سبب ذهابه إلى الرياض، وذلك بعد وصول الوالد بثلاثة أيام؛ فوافق الوالد، وقبل الدعوة، ولم يثرِّب على ذلك الرجل، بل كأن شيئاً لم يكن».

وهذه الروايات من صاحب الشأن وممن عايش تلك الحال من خاصة الشيخ تنفي ما يضاد ذلك من تَقوُّلات أو نقولات عن مجاهيل خاض بها من خاض.[1]

يقول الشيخ د. أحمد القاضي: «وهكذا كانت هذه الحادثة سبباً لعلو نجم الشيخ، ورفعة منزلته، ومزيد معرفته، من لدن أولي الأمر من الولاة والعلماء، وتكريمه، وقد قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حسود

١ ـ انظر: رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج ص٥٠.

على أن الشيخ رحمه الله لم يضمِّن تفسيره الموسوم بـ: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) رسالته في يأجوج ومأجوج، ولا شيئاً مما استنكره مخالفوه، وبقيت الرسالة محفوظة منذ ذلك الحين في أيدي نفرٍ قليلٍ من الناس، ولا يعلم أن الشيخ رحمه الله رجع عن شيءٍ مما جاء فيها، ولكنه لم يطبعها في حياته، كما صنع في معظم كتبه، رغم أنه كان بين تأليفها ووفاته سبع عشرة سنة تقريباً، فلعله رأى أن ذلك مقتضى المصلحة في ذلك الوقت.

وظلت الرسالة وتداعياتها معلماً بارزاً في سيرة الشيخ، فلا يكاد يُذكر حتى يُثنّى بذكر تلك الواقعة، ولا يكاد يذكر ردم ذي القرنين، أو خروج يأجوج ومأجوج، إلا وتجري الإشارة إلى هذه الرسالة»[1].

ـ ملخص كلام الشيخ في مسألة يأجوج ومأجوج:

ذكر الشيخ د. أحمد القاضي ملخص قول كلام الشيخ عبدالرحمن في هذه الرسالة في أربعة أمور فقال: « **أولاً: حقيقتهم وأصلهم:**

ـ أن يأجوج ومأجوج أمتان من بني آدم، من نسل يافث بن نوح، وليسوا عالماً غيبياً كالملائكة والجن.

ـ أنهم من جنس الترك، جيرانهم، وأبناء عمومتهم، مشابهون لهم في الخلقة،

---

١ ـ المرجع السابق ص٥٠.

وما يوجد من الآثار الدالة على مخالفتهم لصفات الآدميين فكذب مناقض للأدلة الصحيحة.

ثانياً: بلادهم:

ـ مساكنهم الأصلية في شمالي آسيا، وتحديداً: منغوليا، وشرقي تركستان، منحازين فيها، لم يتمكنوا من الخروج بسبب ردم ذي القرنين مدداً طويلة.

ثالثاً: خروجهم وانفتاحهم:

ـ أن ابتداء خروجهم وقع في وقت النبيﷺ وبخبره: «**فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**».

وحلق الإبهام والسبابة، ثم لم يزل ذلك الفتح يزداد، حتى زال الردم واندك.

ـ أن المخترعات الحديثة، والصناعات الراقية مكنتهم من تجاوز الحواجز الطبيعية الأخرى، فانفتحوا على الناس من كل مكان، فبرزوا من فوق رؤوس الجبال، ونفذوا من فوق متون البحار، وصعدوا في جو السماء، وصاروا «**من كل حدبٍ ينسلون**»، ولم يعودوا محصورين خلف الردم لا يطلع عليهم أحد.

ـ أن انفتاح يأجوج ومأجوج، وخروجهم الابتدائي قد وقع، وحصل منهم الإفساد في الأرض على الناس عموماً، وعلى المسلمين والعرب خصوصاً، كفتنة التتار في المشرق، وغزوات المجار في بلاد أوربه.

ـ أن خروجهم في آخر الزمان، الموصوف في حديث النواس بن سمعان بعد فتنة المسيح الدجال لا يدل على أنهم لم يخرجوا قبل ذلك؛ إذ المراد بالخروج التحول من محل إلى محلٍ آخر، وليس ابتداء الخروج.

رابعاً: مَنْ يأجوج ومأجوج الآن؟:

ـ أن هذه الأمة اندفعت من مساكنها الأصلية في منغوليا وتركستان، وتفرعت عنها: التتر، والصين، واليابان، والروس، واكتسحت الشعوب الأوربية، وامتزجت بهم، فهم هذه الأمم، وإن صارت لهم أسماء مخصوصة، ومَنْ وراءهم مِنَ الأمم كأمريكا حكمها حكمهم.

ـ أن الأولى أن يكون لفظ (يأجوج ومأجوج) المشتق من الأجيج والسرعة، اسم جنس، يشملهم، ويشمل غيرهم ممن تنطبق عليه صفاتهم؛ من كثرة الشر والكفر، ولا يقتصر على طائفة مخصوصة»[1].

وبعد أن لَخَّص الشيخ د. أحمد ما دارت حوله رسالة يأجوج ومأجوج أورد تحليلاً موجزاً للرسالة فقال ـ حفظه الله ـ: «قرر الشيخ رحمه الله آراءه هذه في يأجوج ومأجوج بثقة بالغة، وجزم أكيد، لا تردد فيه، كقوله: إن صفاتهم: «ظهرت، واتضحت، فوصلت إلى درجة اليقين»، وقوله: «لا يشك ولا يسترِيب أنهم هؤلاء الأمم، أو بعضهم»، وقوله: «إذا جمعت ذلك كله، علمت علماً يقينياً لا شك فيه، ولا ريب أنها واقعة على تلك الأمم، وأنهم المرادون بها»، وقوله: «من نظر إلى أدلتها الشرعية والعقلية لم يرتب»: أي في كونها «تنطبق عليهم غاية الانطباق» يعني الأمم المعروفة من الروس، والصين، وأمريكا، والإفرنج، ومن تبعهم، كما تكرر في رسالته.

---

١ ـ المرجع السابق ص.٥٢

بل قد بلغ به الحماس لفكرته رحمه الله لَمَّا أَنْ شعر أَنَّ حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه حجة للمعارض جنح إلى التأويل، معرِّضاً بأن الحديث قد يكون غير محفوظ مع كونه في صحيح مسلم.

ولا ريب أن الشيخ رحمه الله وُفق توفيقاً بالغاً في الكلام على حقيقة هؤلاء القوم وأصلهم، ومحق الخرافات التي نسجتها عناكب الخيال، والآثار الموضوعة حولهم، في حجج قوية مقنعة، وتلك قضية وافقه فيها أهل التحقيق من المتقدمين والمتأخرين.

وأحسب أن الشيخ وفق ـ أيضاً ـ في تبديد الاعتقاد بأن هاتين الأمتين محصورتان خلف السد، لا يطلع عليها أحد، ولا تتصلان ببقية المعمورة، وأن هذا الاعتقاد ليس بلازم كلام الله، ولا كلام رسول الله ﷺ وأيَّد ذلك بالدلائل الجغرافية والعقلية المقنعة، التي تكشف عن واسع ثقافته، واطلاعه على كلام أهل الهيئة، والسير، المتقدمين والمتأخرين.

وهذا القدر قد أنكره بعض معاصريه ممن قطع بأن مقتضى القرآن أن يأجوج ومأجوج لا يزالون محصورين خلف سدٍ من حديد، في مكان ما من الأرض، وشنّع على الشيخ رأيه، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ الكهف.

فاندكاك الردم، وخروج من وراءه على الناس متصل بقيام الساعة، وليس أمراً قد قضي، كما ذهب إليه الشيخ رحمه الله.

ويمكن القول أن يأجوج ومأجوج الآن أمتان معلومتان، محسوستان، باقيتان في مساكنهما الأصلية، حتى إذا شاء الله انفتاحهما المذكور في آخر الزمان جعل الله اندكاك ذلك الردم التاريخي إيذاناً بخروجهم، وإن لم يكن مانعاً لهم الآن من الاتصال بالناس، والله أعلم.

ومع أن الشيخ رحمه الله يرى أن الردم قد اندك فعلاً، وأن فتح يأجوج ومأجوج قد ابتدأ حقاً، منذ قول النبي ﷺ: «**فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلق بين الإبهام والتي تليها ـ إلا إنه يعد ذلك خروجاً ابتدائياً، لا ينافي الخروج النهائي الكبير في آخر الزمان.

وبين هذين الطرفين سلسلة متصلة من حلقات الإفساد في الأرض انطلقت من مواطن يأجوج ومأجوج في أواسط وشمالي آسيا، كان منها اكتساح المغول للممالك الإسلامية، وغير الإسلامية، وغزوات المجار في أوربا، وغيرها، حتى تختتم بخروجهم النهائي بعد قتل المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ للمسيح الدجال، ثم يكون فناؤهم.

وهذا التقرير على جدته متوجه معقول، والخطب فيه سهل.

ولم يكن الشيخ رحمه الله بدعاً من العلماء في تقريره، فقد سُبِقَ إليه، وتبع فيه.

فممن سبقه إلى ذلك الفقيه المحدث محمد أنور الكشميري المتوفى سنة ١٣٥٢هـ رحمه الله فقد قال في شرحه لصحيح البخاري: «إن سد ذي القرنين قد

اندك اليوم، وليس في القرآن وعدٌ ببقائه إلى يوم خروج يأجوج ومأجوج، ولا خبر بكونه مانعاً من خروجهم، ولكنه من تبادر الأوهام فقط،فإنه قال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الكهف: ٩٩، ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ الأنبياء: ٩٦ إلخ، فلهم خروج مرة بعد مرة، وقد خرجوا قبل ذلك ـ أيضاً ـ وأفسدوا في الأرض بما يستعاذ منه، نعم يكون لهم الخروج الموعود في آخر الزمان، وذلك أشدها، وليس في القرآن أن هذا الخروج يكون عقيب الاندكاك متصلاً، بل فيه وعدٌ باندكاكه فقط، فقد اندك كما وعد.

أما أن خروجهم موعود بعد اندكاكه بدون فصل، فلا حرف فيه»[1].

وقال في موضع آخر: «ولم يذكر في القرآن لفظ الخروج من هذا السد فقط، هاهنا، ولما ذكر في (الأنبياء): ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ الأنبياء: ٩٦.

ولم يذكر السد، والردم، فكان الخروج لعمومهم»[2].

يقول د. أحمد القاضي: «وتبقى المسألة الأخيرة، وهي تحديد هوية يأجوج ومأجوج الآن! فأحسب أن الشيخ رحمه الله قد توسع فيها توسعاً زائداً إلى الحد الذي يُفْقِدُ هاتين الأمتين كينونتهما المميزة، واستقلالهما العِرقي والجغرافي، الذي دلت عليه النصوص، ويجعل اسمهما (اسم جنس) مشاعاً بين جميع الأمم والأعراق؛ استناداً إلى اندماج الشعوب التركية الطورانية بمختلف شعوب

١ـ فيض الباري على صحيح البخاري ٤/٢٣.

٢ ـ المرجع السابق ٤/٢٦.

الأرض، حتى أفضى به الأمر إلى حسبان معظم أمم الأرض من يأجوج ومأجوج.

وهذا غير مُسَلَّم؛ فالأمم والشعوب معروفة بأسمائها وأعراقها من عهد النبيﷺ إلى أن تقوم الساعة.

ولم تزل تقع بين الأمم والشعوب غزوات وامتزاجات دون أن تلغي خصوصيتها، أو تسلبها أصلها.

ومن شواهد ذلك قولهﷺ: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»[1].

ولا شك أن هذا القول، والجزم به أثار استنكاراً للرسالة مع ما تضمنته من جوانب مشرقة مفيدة، أدت إلى ما ذُكر آنفاً من استدعاء الشيخ رحمه الله وانكفافه عن تقريرها.

ـ مراحل كتابة الشيخ للرسالة:

يقول الشيخ د. أحمد القاضي ـ حفظه الله ـ: «كتب الشيخ هذه المسألة ثلاث مرات، بخطه، في سنة واحدة ١٣٥٩هـ، وجميعها موجود محفوظ، ويظهر لي ـوالله أعلمـ أن الكتابة تمت على ثلاث مراحل:

أولاً: الرسالة المختصرة: ضمنها الشيخ رأيه مجملاً دون تبويب، أو تفصيل، أو نقول.

ولعلها النسخة التي حُملت إلى الرياض، وتلقاها المشايخ، وهي التي اعتمد عليها ابن محمود في استشهاداته، وقد ضمنها الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن

---

١ ـ صحيح مسلم (٢٨٩٨).

المسند ـ حفظه الله ـ كتابه المعنون: (الصين ويأجوج ومأجوج، عالم مجهول)[١] ونقلها بكاملها.

ثانياً: الرسالة المتوسطة: أعاد كتابة رأيه مبسوطاً، وقدم له بمثال، وثنى بآخر هو يأجوج ومأجوج، ورتب له عشرة أدلة في إثبات ما ذهب إليه، إلا أنها خلت من النقول عن المعاصرين وغيرهم.

ثالثاً: الرسالة التامة: وهي التي بين أيدينا، وقد حبرها الشيخ تحبيراً، وألحق بها جملة من النقول من كلام أهل العصر المعتبرين ما يؤيد فكرته، ورفع من مستهلها المثال الأول؛ اقتصاراً على أمر يأجوج ومأجوج فقط[٢].

وقد اعتمدناها هاهنا لكمالها، وتضمنها ما سبق، وزيادة، يدرك هذا من قارن بين ألفاظ الرسائل الثلاث، والله أعلم».[٣]

هذا هو ملخص ما ورد في قصة يأجوج ومأجوج.

وفي نهاية الحديث عن هذه القصة ينتهي الحديث عن سيرة مدرسة السماحة والحلم الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله رحمة واسعة، ونفع بعلمه وسيرته؛ إنه سميع قريب[٤].

---

١ ـ من إصدارات نادي القصيم الأدبي ببريدة. الطبعة الأولى عام ١٤١٠هـ.

٢ ـ طبعت هذه الرسالة طباعة مستعجلةً خالية من التحقيق، سنة ١٤١٨هـ، ووقع فيها بعض التصرف والأخطاء.

٣ ـ رسالتان ص٥٧ـ٥٨.

٤ ـ في النية ـ إن شاء الله ـ إفراد لسيرة الشيخ رحمه الله والتوسع في ترجمته؛ حيث لدي أخبار، وروايات عن سيرته غير ما ذكر.